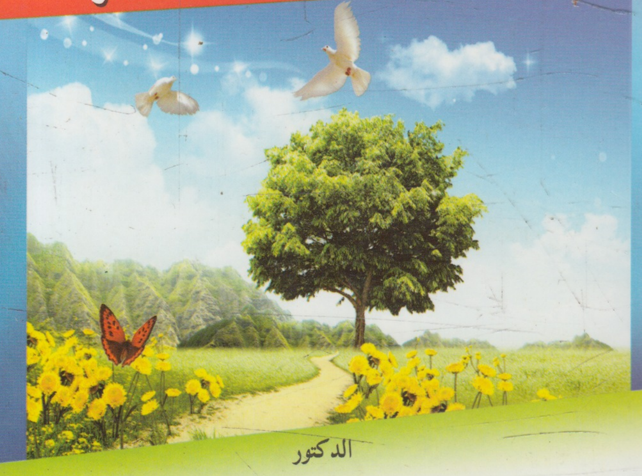
زماني الجميل

بعض ما وعته ذاكرتي من
الأزمنه والأمكنة والحالات والمواقف والأشخاص



الدكتور
قاسم بن محمد بن سالم الصالحي



زماني الجميل

الطبعة الأولى

رقم الإيداع : 2010 / 14535

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع

هاتف : 00968/96444669

t-k-aldhamri@hotmail.com

ص ب 2 السيب الرمز البريدي 121 سلطنة عمان

زماني الجميل

بعض ما وعته ذاكرتي من الأزمنة والأمكنة
والحالات والمواقف والأشخاص

الدكتور قاسم بن محمد بن سالم الصالحي

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
هاتف: ٠٠٩٦٨٩٦٤٤٤٦٦٩
t-k-aldhamri@hotmail.com
ص ب: ٢ السيب الرمز البريدي: ١٢١ سلطنة
NDRINA

بداية الكلام...

أقول يقترب العقد الرابع في زماني من اكتماله، وتضيء صوره في مخيلتي كما تضيء الشمس من مشرقها وقد أرسلت أشعتها على سطح مياه بحر عُمان وبحر العرب، في هذه العقود الأربعة مرت بلادي بعملية بناء فريدة، فجابهت كل المعوقات، وتبوأت بحكمة قيادة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم مكانة عالية مرموقة، وأنتقل شعب عُمان من حياة المعاناة وقسوة العيش إلى حياة العزة والكرامة ورغد العيش والرفاهية، حياتي في زماني الذي أروي ذكرياتي فيه ليست خاصة بي، فهي حياة جيل بأكمله جيل نهضة جلالة السلطان قابوس، أنبت نبتته في أرض عُمان الطيبة المعطاءة، هذا الجيل قد نحت طريقه بجد واجتهاد، ممزوجين بإخلاص للوطن، والوفاء للقيادة الحكيمة، في جبال

عُمان الشماء وسهولها وصحاريها، وجعل من ما شاهدته عيونه في مسيرة النهضة جسراً تعبر عليه الأجيال التي تلته وهي تعيش زمان يزداد عزة وبهاء، جيلي عايش المسيرة ورافق الآمال ولمس الوعود الصادقة وسار مع نور فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد .. ولا يزال.

أشعر في مسيرة زماني وكأنني عشت مئة عام من العمر، اختزلت الزمان في أربعة عقود منه مخر بي قارب الحياة عبر العصور، استضأت قبل عام ١٩٧٠م، بنور "الفنر" وها أنا في زماني أسبح في نور الكهرباء الغامر، تعلمت قبل ذلك في الكتاتيب وكتبت على ألواح، وإذا بي اليوم أتصل بالكون كله بالشبكة العنكبوتية "الانترنت"، بدأت طفولتي المشي حافياً، وامتطيت في عصر النهضة العُمانية أحدث السيارات وأفخمها ورحلت إلى بقاع الدنيا في طائرات الأسرع من الصوت، بتُ قبل زماني الجميل

في "عريش من السعف" وسكنت اليـــوم في أرقـــى المدن وأجملها عمراناً، ونزلت في سفري أفخر فنادق العالم، أكلت الجراد ونبات " الهرم " والخلال قبل أن يصير رُطبا أيام المسغبة، وطعمت في زماني أشـــهى الأطعمة وأغلاها ثمنا، خالطت في زمـــاني شـــعوب وجنســـيات مختلفـــة، وأطلعـــت علـــى مختلـــف الأيديولوجيات والأفكار، وراقبت شتى السياســـات والاتجاهات والتطلعات، و – كما وصف الدكتور علي فهمي خشيم حياته في كتاب "هذا ما حدث" – فأنني مثله في زمـــاني، تعاركـــت وتصـــارعت وخاصمت وصالحت ورافقت وداخلت وصاحبت وهادنت وعاندت وقبلت ورفضت ، لكن لم أتشاءم بل تفاءلت في زماني كثيراً ورجـــوت وضـــحكت أكثر، نجحت وأحببت وسعدت، إنها ليست حياتي أنا وحدي إنها حياة جيل النهضة العُمانية الحديثـــة، ونبتة زرعاها جلالة السلطان قابوس عام ١٩٧٠م، في أرض طيبة كانت عطشا تتلهف إلى قطرة مـــاء،

جرداء ترتقب من يلبسها الرداء الأخضر، ويزينها بمعمار هندسي جميل، حتى غمرها الفيض بفضل الله وجهد القائد المفدى وإخلاص الشعب العُماني الوفي، فتباهت بنقش الخنجر العُماني الأصيل، وتقلدت السيف المهند، وارتفعت هامات الإكبار والفخار حتى عنان السماء.

ماذا يعني الإدلاء بأحاديث الذكريات؟ ماذا يعني أن نتحاور حول زماني؟ ماذا يعني الكلام في النهضة العُمانية الحديثة؟ هذا السؤال الذي طرحه الكثيرين، ومازال يطرحه آخرون إلى الآن، لا يقتصر فقط على دلالة مفهوم "الحديث"، إذ يمكن استبدال هذا الأخير بمضامين أخرى تسمح بصياغة السؤال على شكل: ماذا تعني نهضة زماني؟ ومن الواضح أن وراء الإجابة تكمن مفاهيم فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم وإشكالات التطبيق ورهانات الواقع، وإذا كان السؤال مازال مفتوحاً، فان الأجوبة عليه

مازالت بدورها مفتوحة تغتني بتنـــوع المقاربـــات وأهمية التجارب وحجم تراكمات الذاكرة وتعـــدد مسارات الانجازات في زماني، وقد لا يحتاج المرء إلى جهد وكبير عناء للتذكر طالما أن الصورة الجميلـــة متجسدة على واقع عُمان السياسي والاقتصـــادي والاجتماعي والثقافي، بل ويمكن للمتطلع في شؤون النهضة الحديثة لعُمان أن يسعى إلى وصف الصورة المتجسدة في ذاته، أي أن يكون، شاهداً لشكل هذه النهضة ومضمونها، ويمكنه أن يكـــون أحاديـــا في عملياته الاستدلالية المنطقية بدءا من وعود جلالـــة السلطان قابوس وصولاً إلى ما تحقق علـــى الأرض ومروراً بالجودة والإتقان في ما أنجز، ولا أحد يمكنه أن يجادل في أن وراء صور التقدم هذه فكر مستنير من قائد مخلص لوطنه وهب كل ما عنده من اعتقاد وجهد وإمكانات للنهوض بالإنسان العُماني وحريته وكرامته وعزته.

فجر زماني..

لا أذكر بالضبط نص الخبر أو البيان الذي يشير إلى مقدم جلالة السلطان قابوس إلى مسقط، كل ما أذكره، إنني حين سمعت الخبر للمرة الأولى عبر مذياع كان أبي وصديقه يستمعان إليه وهم يستندان على جدار بيتنا في عصر ذلك اليوم، شعرت بإنفعال لا يمكن لمن هو في عمري أن يفهمه أو يحلله أو يفسره، وظللت في حالة شرود طفولي، ولم أكتف بذلك بل ظللت أشدو باسم لم أكن أعرفه "صلاله"، ورددته لعدة أيام، فقد كان شعوري يُنبأُ بأهمية اسم صلالة وارتباطه بمقدم جلالة السلطان قابوس، وتعاطفت مع والدي وصديقه "الوالد حمود رحمه الله" الذي جاء لزيارته من مسقط وهما يستمعان بشغف إلى المذياع "الراديو" وفي الوقت نفسه يتبادلان بقدر فهمهما جوانب السياسة، وما يعنية

مقدم جلالة السلطان قابوس ووصوله مسقط، ووجدت في حديث والدي وصديقه نبعاً ينساب من الاهتمام والتخيلات، وشعرت أن حدث القدوم أمر كبير ومهم، وكان ما يشدني في حديث والدي وصديقه صدق المتحدثّين في الترحيب بالقدوم وصاحبه، وبساطة الكلمات المعبرة عن حركة التاريخ العُماني وأسرة آل سعيد، وتجسيد مشاعرهما التي جعلت من جلالة السلطان قابوس آمال وأحلام ورغبات عُمان والعُمانيين.

وكان كل ما يدور بين أبي وصديقه يدفعني إلى التفكير في إسمّين هما " قابوس وصلالة " وفهم معنى حديثهما ومحاور ربطهم بين ما نحن فيه وما هو قادم، وكان ما انحفر في ذهني من مشاهد هذا الحديث أكد المعاني والدلالات العديدة التي يولدها اسم قابوس واسم صلالة، خصوصاً بعد مغادرتي بأيام ولاية السويق بصحبة صديق والدي

متجهاً إلى مسقط قصد دخولي المدرسة السـعيدية للدراسة وكان هذا مقترح طرحه صديق والدي عليه وأنني سوف أعيش بين أبنائه ولا خوف عليّ فوافق والدي على ذهابي إلى مسـقط، وفي رحلتنـا إلى مسقط أقلتنا سيارة " لاندروفر" كُتب عليها علـى لوحة سوداء "مسكت" يملكها درويش بن عبـدالله الودامي، خصوصاً حين كنت أشاهد وجـوه مـن ركبوا معنا السيارة ورافقونا الرحلة، وهي تهل بشراً وأملاً، وأجسادهم تتمايل يمنة ويسرة أثناء سـيرنا نتيجة الطريق الغير مُعبد، وتُظهر هذه الوجوه مدى تأثرها بمقدم جلالة السلطان قابوس، وإيمانها بالتغيير، ويقينها بالمستقبل المشرق وإلتفافها حول من يُريـد صناعته، وكان ذلك على وجه التحديد، منـذ أن خرج جلالة السلطان قابوس على المـلأ وخاطـب جموع الشعب، وأصبح رمزاً لنهضةً جديدة ومناط لآمال وأشواق الشعب العُماني.

وكانت صور هذه الأحداث تحفر الأمل والفرح في أعماقي، فأغدو واحداً من جموع الشعب التي كنت واحداً منها في مسيرة البيعة الأولى، بل الجموع التي كنت أذوب فيها مع كل إحتفال حضرته أو شاركت فيه بهذه المناسبة كي أصبح واحداً من هذه الجموع التي أحبت القادم الجديد لأنه ينبئ بالبشر والخير، ومنحها منذ الوهلة الأولى الحرية والعدالة الإجتماعية التي إنتظرتها طويلاً، ووعدها بتقديم أغلى ماعنده ليتحقق لها التقدم والرخاء والوصول بعُمان إلى مصاف الدول المتقدمة، فوجدت هذه الجموع في جلالة السلطان قابوس كل الأماني والآمال، فأحبته كما لم تحب أحد من قبله طوال تاريخ عُمان، والذي صار في أخلاقيات جلالة السلطان قابوس وأفعاله ومواقفه، كان عند حسن ظن الشعب العُماني كله، فهو الأب الحاني العطوف السموح والقائد الحكيم والراعي المسؤول عن رعيته، لن تجد أحداً من الداخل أو

الخارج مُطعناً في نزاهته وإخلاصه الكامل لكل ما نذر نفسه لتحقيقه، ولم يدخر وسعاً في العمل على تنفيذ مطالب شعبه الذي أحاطه بوفائه وبنى النهضة العُمانية معه بإخلاص.

وكانت جموع الشعب العُماني منطوية على حلم المستقبل، راغبة في الإنتقال من الظلام إلى ذُرى الحرية والنور، والعبور من مهاوي التخلف إلى آفاق التقدم، ولذلك بدأ جلالة السلطان قابوس بمبدأ نبدأ من حيث إنتهى الأخرون بضمير صادق جنباً إلى جنب مع ضمائر جموع الشعب المخلصة، وكانت الإمكانات محدودة، جعلتها السواعد المخلصة متوفرة، ووضع جلالة السلطان قابوس نهضة عُمان على رأس أولوياته، وأصبح هو وجموع الشعب في حالة إتحاد الرمز بالمرموز إليه في العلاقات التي ينطق فيها الفرد بصيغة الجمع.

ولن ينسى أبناء النهضة المباركة إتحاد جموع الشعب بجلالة السلطان قابوس عندما أعلن في البيان التاريخي الأول يوم تسلمه زمام الحكم ٢٣ يوليو ١٩٧٠م: إني أعدكم أول ما أفرضه على نفسي أن أبدأ بأسرع ما يمكن أن أجعل الحكومة عصرية وأول هدفي أن أزيل الأوامر غير الضرورية التي ترزحون تحت وطأتها .. أيها الشعب .. سأعمل بأسرع ما يمكن لجعلكم تعيشون سعداء لمستقبل أفضل وعلى كل واحد منكم المساعدة في هذا الواجب ..» ولن ينسى أحد من أبناء هذا الجيل زيارات جلالة السلطان قابوس إلى المناطق والولايات للإلتقاء بجموع الشعب كل في مكانه، وصار هذا تقليداً لا ينازعه عليه أحد من الملوك والرؤساء، تحول اليوم هذا التقليد في عُمان إلى برلمان مفتوح تُمارس فيه أسس الديمقراطية الحقيقية النابعة من البيئة العمانية، وكانت ولا زالت الحماسة الهادرة لا توصف في إستقبال هذه الجموع لجلالة السلطان قابوس في

السويق حيث اندفعت أمواج جموع الأهالي لتحية جلالة السلطان قابوس أثناء زيارته الأولى لولاية السويق وحُملت سيارته حملاً، ولو كان لها ذلك لحملتها على الأعناق، وكانت الحماسة هي هي في إستقبال جموع الشعب لجلالة السلطان قابوس في صحار أو الرستاق أو نزوي أو صور أوعبري أو البريمي أو صلالة أو غيرها من المناطق والولايات، كانت هذه ولايات صارت ولاية واحدة في وعود المستقبل التي بدت قريبة المنال في سنوات الحلم التي أرادها جلالة السلطان قابوس.

إن محبة جلالة السلطان قابوس عند العُمانيين كالإيمان به، تيار سار من شمال عُمان إلى جنوبها ومن شرقها حتى غربها، وأنه يقين لديهم بأنه القائد الذي أعاد إلى عُمان إسمها وموقعها وجمال طبيعتها ووهج تاريخها، وهو ومنذ الوهلة الأولى الذي صنع بينه وبين شعبه كيمياء خاصة في كل مكان ذهب

إليه، وفي كل نشاط تنموي أمر به وأسهم فيه رفع من قدر وشأن العُماني على نحو أعاد لـه عراقته وحضارته ومكانته، حدث ذلك التقارب المفعم بالحب بين جلالة السلطان قابوس والشعب العُماني من أول يوم خاطب فيه جموع هذا الشعب وظل يتجدد في كل لقاء سنوي يلقي فيه خطاباً هو بمثابة خطة العمل المطروحة على الشعب بكل شفافية، وكان في خطاباته هذه يمزج بين ما هو روحي ومادي في علاقة القائد بشعبه، ورغم أن الأمر الداخلي هو الشغل الشاغل لجلالة السلطان قابوس إلا أنه لم يحجب عن جموع الشعب المُحبة له الشؤون الخارجية وعلاقات عُمان بالعالم في خطاباته.

ولذلك أرتبط جلالة السلطان قابوس مع كل فرد من أفراد شعبه وحرك في كل واحد منهم الهمم والطاقات، وأصبحت بالتالي صورة جلالته، حاضرة في

في ذهن الشعب العُماني ووجدانه، يستلهم أفكاره، وماض في خطى طريقه الواعد بالنهضة والعزة وكرامة الإنسان، وإتخذه رمزاً وطنياً كبيراً، لا تزال ذاكرتي وذاكرة أبناء جيلي تحتفظ بصورة جلالة السلطان قابوس وهو ينزل من سلم الطائرة في مطار بيت الفلج تُحيط به كوكبة من أبناء الوطن هم الذين تحملوا معه ولايزالوا عبء مسيرة البناء والتخطيط وبصورته وهو يقوم بزياراته الأولى كسلطان لعُمان إلى الدول العربية وغيرها مبرزاً لهم سياسته المبنية على ترصين الداخل العُماني واحترام الجار وعدم التدخل في شؤون الغير، والذي جعله حكيم زمانه ورجل سلام.

أذكر عامي الدراسي الاعدادي الأول بمدرسة الوارث بن كعب في السويق لم يمض دون أن يحفر في عقلي ووجداني المزيد من حضور دلالات العهد الجديد وتبلوُر الرمز الذي تحول إليه جلالة السلطان

قابوس الذي صار أمل ومستقبل الشعب العُماني بالفعل، كنت داخلاً إلى المدرسة في صباح أحد أيام من العام الدراسي، أذكر على وجه التحديد كان يوم السبت الرابع من ذي الحجة ١٣٩٣ هـ الموافق التاسع والعشرون من ديسمبر ١٩٧٣م، فلاحظت تجمعاً طلابياً يهتف لم يتسن لأذني الصغيرة أن تُفند كلمات هتافاتهم، وآخرون يُهرولون إلى خارج فناء المدرسة التي هي أول مدرسة بُنيت في شريط الباطنة الساحلي في العهد الجديد، فجذبني الأمر وتوجهت شأني شأن غيري من الطلبة، وشيئا فشيئا، أخذ التجمع يتزايد وأنظم إليه المدرسون، سرت مع السائرين في اتجاه مدخل المدرسة، وتجاوز البعض مدخل المدرسة إلى خارج السور ليتميزوا عن بقية الطلاب الذين أحتشدوا في فناء المدرسة، ودفعني الفضول إلى الخروج مع الخارجين والوقوف مع الهاتفين والمصفقين الذين كان أغلبهم يكبرونني سنا، واستغرقني الموقف فلم أنتبه إلا إلى حركة غير عادية

حولي، وفجأة، وجدت جلالة السلطان قابوس، ينزل من داخل سيارته، ويقف بيننا، باسماً، حانياً، لم اندهش، لكنني أُصبتُ برجفة لم أعهدها، فقد كانت تلك المرة الأولى لكنها ليست الأخيرة التي أجد نفسي فيها قريباً من جلالة السلطان قابوس الذي كان ينظر إلى الكل ويربت على أكتاف البعض بحنو الأب الباسم، ولم يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة، طلب بعدها المدرسون من الطلاب دخول الفصول الدراسية حتى يتمكن السلطان من المرور عليهم، وتدافع الطلاب في تلك اللحظات منهم من ذهب في اتجاه الفصول ومنهم من اقترب إلى شخص السلطان لأخذ صورة تذكارية معه، ولسوء حظي لم أكن من بين الطلاب الذين أُلتقط لهم صورة مع جلالة السلطان.

وأخذ مدير المدرسة والمدرسون يتحدثون مع السلطان وكنت حينها قد دخلت الفصل الدراسي

إستعداداً لاستقبال جلالة السلطان قابوس، ولم يمض وقت حتى كان السلطان إلى جانبي يستمع إلى مُقدمة الدرس من خلال الشرح الذي يلقيه المدرس، ومن ثم تعمد المدرس طرح الأسئلة أمام السلطان وكنا نتسابق في رفع الأيادي لا يهمنا إن كنا نعرف الإجابه أم لا بل المهم أن يلفت كل طالب منا إهتمام السلطان إليه، وظل يتجول في فصول المدرسة ونحن نرقبه من خلال النوافذ، ولم أنتبه إلا ونسمع من بعض التلاميذ أن جلالة السلطان قابوس قد أمر بعلاج أحد الطلبة خارج السلطنة "عبدالله البلوشي" كان يعاني من مرض في إحدى عينيه، وامتلأت ساحة المدرسة مرة أخرى بالطلاب الذين خرجوا لتوديع السلطان قابوس بعد أن أنهاء زيارته للمدرسة بكتابة كلمات بخط يده على كراس قد أحضرته إدارة المدرسة لهذا الغرض وكتب جلالته العبارة التالية: لقد سرنا ما لمسناه من تقدم واجتهاد من قبل المعلم والمتعلم بهذه المدرسة الفتية والله يوفق الجميع

دائماً للنهوض بهذا البلد العزيز.. والسلام، ومـــن ثم ذيلها بتوقيعه، وتعتبر هذه الورقة من ذاك الكـــراس مُقتنية ثمينة تاريخية تحتفظ بهـــا ولايـــة الســـويق في إرشيفها، وظل الحشد الحاشد يتزايد بمجموعـــات جاءت من خارج المدرسة، وأخذت السيارات المارة في الشارع العام القريب من المدرسة تتوقف بمجرد رُأيتهم موكب السلطان قابوس، وكدت أقع تحـــت الأقدام من وطأة الزحام وتشبثت بموضعي، وظللت ارقب تحرك هذا القائد العظيم وصعوده الســـيارة، لكنني لم أفلح في لفت إنتباهه كي يراني أُلوح بيدي، حيث لمحت عيناي الأمواج البشرية الممتدة من داخل باحة المدرسة إلى خارجها في الشارع العام، و لم أعد أسمع سوى صوت تلك الجموع من الشعب الـــتي صارت كلها جسدا واحدا، أما أنا فقد كنت يومها كأنما الوحيد الذي حظي بلقاء السلطان وتحـــدث معه، لأنني أختزلت كل تلك الحشود مـــن الطلبـــة والمدرسين وغيرهم ممن أتى في ذاتي لوحدي فصرت

معهم بالفعل جسداً واحداً وقلباً واحداً متطلعاً نحو:

قابوس الأمل والمستقبل.

زمان الابتدائية

ولدت في مستشفى "مس ميري" في مسقط هكذا كان يسمى قبل عام ١٩٧٠م نسبة إلى الدكتورة مس ميري، وسمي في عصر النهضة مستشفى السعادة للأمراض النسائية، وعشت وترعرعت في بلدتي البطحاء بولاية السويق هذه الولاية الكبيرة بمساحتها والغنية بإمكاناتها والتي تشتهر بسوقها النشط وتوافد القوافل عليها من شرق وغرب السلطنة أو تلك النازلة من المناطق الجبلية، وصاحبتها أنشطة زراعية فهي مستلقية في أحضان شاطئ بحر عُمان تتنسم هفهفات نسيمة العليل وهبوبه الماطرة فتخرج حقولها الغناء رطبا وخضرا وفاكهة تغني البلاد وتفيض، وقد رست على "فرضة" الولاية سفن غرذت صواري أشرعتها عبر أمواج البحر تشق العباب ارتيادا لأعماقه استخراجا لخيراته الجزلة

وسافر ربابنتها نحو الموانئ القصية تجارة مع شعوب الأرض مخلدين أسمائهم كـ جد والدي "محمد بن عبيد الصالحي" على السفينتين"البيرق والصحارية" التي آلت ملكيتها من بعده إلى جدي "سالم بن محمد الصالحي"، وولاية السويق في زماني تلألأت فرحاً واختالت تيها بما حازته من بريق مجدها بما أقيم فيها من صروح، وتعمير لمضاربها الأصيلة في باديتها التي تتجسد فيها شيم العروبة، وقد ألحقني والدي بكتاب حفظ القرآن فحفظت سور من القرآن الكريم على يد المعلمة "زيانة" في حلة الردة ومن ثم انتقلت إلى المعلم "خميس" في الحلة القديمة لانني كنت كثير الشغف بالعيش في بيت جدي لأمي سعيد بن سالم بن خميس الشيادي رحمه الله، القريب لهذه المدرسة، وفي الحقيقة لا أذكر المقدار الذي حفظته من كتاب الله الكريم، ومع رحلتي إلى مسقط في عام ١٩٧٠م، فقد درست السنتين الأولى والثانية من المرحلة الإبتدائية في المدرسة السعيدية في مسقط إلى أن تم

فتح أول مدرسة للبنين في عهد النهضة بولاية السويق هي مدرسة الوارث بن كعب، ثم التحقت بالمعهد الديني بالوطية وإتمت الشهادة الإبتدائية فيه، ثم العودة مرة أخرى إلى ولاية السويق وإتمام المرحلة الإعدادية في مدرستها، وبعدها الرجوع إلى المعهد الديني الذي أصبح المعهد الإسلامي الثانوي وأكملت الشهادة الثانوية العامة والدراسات الإسلامية فيه.

ولذلك تعتبر سنوات تفتح وعيي على الحياة خلال السنتين الأولى والثانية من دراستي في المدرسة السعيدية، فهي التي غرست في داخلي باكورة إدراكي لمعاني العلم والحياة وحب الوطن والفن والدين والقيم الإجتماعية، ولا أزال أذكر جيداً مبنى المدرسة الذي يقع خارج سور مسقط يمر أمامه الطريق المسفلت الوحيد الذي كان يربط مدينة مسقط بمدينة مطرح البوابة إلى باقي مناطق عُمان

المختلفة، وكان هذا الطريق محاذ لخندق هو ممر لمياه السيول وفي الوقت ذاته حماية لسور مسقط ما بين بوابتيه " الباب الكبير، والباب الصغير" وعلى يمينه مسجد موسى عبدالرحمن وسوق مسقط، ويحيط بالمبنى سور ويتوسطه ساحة صغيرة لطابور الصباح، وباب غرفة المدير على يسار المدخل، وكنت مثل غيري من الطلاب المستجدين انتابني خوف من المدرسة والمدرسين وناظر المدرسة، وغالبني التوتر في الأسبوع الأول ولم أتخلص من وحدتي، ولم أحاول للوهلة الاولى أن أختلط بزملائي من طلاب المدرسة المستجدين فيها من أمثالي في السن، ولا خطر على بالي أن أسأل أي منهم ما إذا كانوا من سكان مسقط أم جاءوا مثلي من مناطق أخرى من عُمان، لأنني لم أر أي داع فلا تفرقة في المعاملة بيننا، ولم يكن وارداً أصلاً في خاطر أو عقل أي منا أن يذكرأنه ابن فلان أو أن أصوله للعائلة أو القبيلة الفلانية، والمؤكد أنهم لم يفكروا في شخصي وما إذا

كنت مسقطياً أم لا، وأذكر جيداً أنني وُضعت مع مجموعة من الطلاب في الفصل التمهيدي الأول بالمبنى الملحق بالمدرسة للدراسة خلال الفترة المسائية ولم تكن الفصول مهيئة بعد وأجلسونا على الأرض مفترشين الحصير، في البداية كان حضورنا المدرسة لأجل التوزيع على الفصول والتعارف وتمكين التلامذة المستجدين من التأقلم على أجواء الدراسة والإستماع إلى تعليمات الأساتذة والتأكيد على احترام الوقت المخصص لكل حصة وإظهار الصرامة في هذه الجوانب من قبل الأساتذة، وكنا خلال فترات الفُسح نعبر باب جانبي صغير يواجه سوق مسقط الذي لا يفصل بينه والمدرسة إلا زقاق يجعل المسافة بين المدرسة وأقرب كافتيريا وحيد خطوات قليلة معدودة، وبالطبع كنا نذهب لشراء الشاي أو الزجاجات المبردة، والبعض كان يلهو وآخرين يتبادلون أطراف الحديث، فننضم إلى بعضنا البعض في ثوان، في مرح الطفولة وصخبها وبراءتها، وقد

عرفت للمرة لأولى لعبة كرة القدم حينــها، ولا أذكر أنني لعبت مع من كانوا يلعبونها، بل كنت لا زلت أعيش ما تعودت عليه في بيئتي الريفية متمسكاً بالجدية، وأذكر أن المولعين بلعب الكــرة كــانوا يواصلون اللعب إلى أن تخور قــواهم، ويهــاجمهم الجوع فيفترقون إلى بيوتهم، وأذكر أنــني لم أكــن أفارق "نمير آل سعيد" وكنا نلتقي في بيته في المساء للعب أو قراءة بعض مجلات الرسوم الكريكاتوريــة التي كنت مولع بقراءتها، ولا أنسى قط الرعاية التي كنت أحظى بها من والديه وأخوته.

ولا أنسى كذلك أنه وبعد مرور إسبوعين أو ثلاثة لا أذكر بالتحديد من انتظامي بالمدرسة وفي الحصة الأولى تحديداً دخل معلم – لا أذكر أسمه – ملقيــاً التحية .. السلام عليكم، إذا بي أرد بأحسن منــها وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وكنت الوحيد الذي رد التحية، فسألني .. من الذي يبدأ بالســلام

هل راكب الدابة أم الراجل عنـــد إلتقائهمـــا؟ .. فأجبت راكب الدابة، ولم يعلق على الإجابه، لكنني أذكر – في اليوم التالي – طلب مني أن أصـــطحبه إلى مكتب الناظر، فذهبنا معاً دون أن أسأله عـــن السبب، وكان الناظر في انتظارنا دخلنـــا وكـــان السكوت والرهبة هي الحالة التي كنت عليها، أمرني الناظر أن أجلس على الكرسي القريب من طاولـــة كانت وسط غرفة المكتب، وطلب مني أن أكتـــب على الورقة البيضاء الموضوعة على الطاولة كلمة – وردة – فكتبتها ناقصة حرف – الراء – فطلب مني مرة أخرى كتابة أسم – جمل – فكتبته صـــحيحاً، فطُلب مني الخروج وظل المعلم مع النـــاظر داخـــل المكتب للحظات ثم خرج ووجهه مشرقاً فقـــال: مبـــــروك يا بني سوف تُنقل إلى الفصل الأول في الفترة الصباحية، ولا شـــعورياً تركـــت المعلـــم وجريت إتجاه الفصل وجلست دون أن أعلم زملائي بالذي حصل لي في مكتب الناظر، الطريـــف أنـــي

ذهبت إلى البيت ولم أخطر أحد إلا في اليوم التالي عندما لبست ملابسي في الصباح الباكر وهممت بالذهاب إلى المدرسة، سألتني زوجة صديق والدي رحمة الله عليهما التي كنت أناديها بأمي، والتي ربما قد أدركت على نحو غامض، أنني رجعت من المدرسة يوم أمس وشيء ما أدخل السرور والفرح في نفسي، وكان يدعم هذا الشعور في نفسي ما كنت أسمعه منها رحمها الله عبارات الحب والحنان والدعاء لي بالتوفيق، ولم أكن أستغرب شعور الأمومة الذي كانت تغمرني به رحمها الله، ولذلك ظللت أعاملها مثل ما أعامل أمي، كما ظلت تعاملني كابنها إلى أن توفاها الله.

لم أعرف طوال العامين الدراسيين اللذين قضيتهما في المدرسة السعيدية أن هذه المدرسة هي أول مدرسة عُمانية في العصر الحديث وإنها ثاني إثنتين في عُمان كُلها إلا قبل تخرجي من الشهادة الإعدادية

بقليل، وقد عرفت ذلك بسبب التطور الهائل في نظام التعليم وإنتشار المدارس في كافة ربوع عُمان بعد عام ١٩٧٠م، فأدركت على نحو ما أن إفتتاح المدرسة السعيدية في عام ١٩٤٠م، جاء تيمناً بميلاد السلطان قابوس الذي أكد في الأيام الأولى من توليه الحكم على أهمية نشر التعليم في السلطنة في مقولته الشهيرة " سنعلم أبناءنا ولو تحت ظل شجرة "، وأن المسيرة التربوية في عُمان مع إفتتاح المدرسة السعيدية عرفت نمطاً جديداً من التعليم أخذ طريقه بعيداً عن نظام الكتاتيب والدراسة في المساجد، وأن مبنى المدرسة الذي قرأت أنا فيه تم تصميمه في جمهورية مصر العربية خلال زيارة المغفور له بإذن الله السلطان سعيد بن تيمور لها عام ١٩٤٤م، وأن إفتتاح المبنى عام ١٣٧٠هـ الموافق ١٩٥٦م، كان إذاناً لبداية مرحلة أخرى من مراحل التعليم بهذه المدرسة أستمرت حتى العام الدراسي ١٩٩٩/٩٨م، بعدها

حل محل هذا المبنى مبنى حديث صمم على الطــراز المعماري العُماني الحديث الذي يجمع بين الأصــالة والمعاصرة، ولاتزال هذه المدرسة قائمة في مكانهــا رغم كل ما أزيل من مباني بجوارها والعمل يجــري نحو إقامت متحف تربوي مكانها لتوثيــق الحقبــة الزمنية لهذه المدرسة وما تلاها من زمان نحن نعيشه بهدف إبراز القناعة الراسخة لدى العُمانيين بأهميــة التعليم وضرورته في عهد النهضة المباركة لتحقيــق التنمية الشاملة.

ولا أزال أذكر الحفلة الفنية الأولى التي أقيمت في فناء المدرسة السعيدية والتي أحياها الفنــان العــربي أبوبكر سالم، ولم ينتبه حينها أياً من حضــر ذلــك الحفل إلى أن إحتضان مبنى المدرسة لهذا الحفل يعني إيذاناً بمرحلة جديدة من التعليم يشمل كافة مناحي الحياة بما فيها جوانب الترفيه، فالكل كــان يعــيش حلم العهد الجديد والكل كان فرحاً بمقدم السلطان

قابوس بروح ملأها الأمل المشرق بالإنجازات دون حتى تفكير في الذات، ولا أزال أذكر أن بعض الكبار من جيراننا رقص عندما أستمع إلى الموسيقى، وأن مدرسينا كانوا يرددون كلمات أغاني الفنان أبوبكر سالم، بل لا أزال أذكر تدافع جموع الناس إلى فناء المدرسة وهتافاتهم بحب الوطن وحياة السلطان الذي غرسه جميع الأساتذة في نفوسنا الغضة التي بدأت تحمل معنى حب الوطن في داخلها مع إعلان السلطان قابوس أن الحرية للجميع والوطن يتسع للجميع.

وقد تعودنا على الذهاب إلى فناء المدرسة للعب طول فترة المساء، وأصبح فناء المدرسة فيما بعد ميداناً تقام عليه مسابقات ألعاب القوى ومباريات كرة القدم بين فصول المدرسة بمشاركة طلبة من مدارس أخرى، ويمكن القول أن فناء المدرسة كان المكان الأول المناسب لإقامة المهرجانات الطلابية

عليه، فيما برز من رحم هذه المشاركات رياضيون ومواهب عديدة كنا نشجعها ونصفق لها مطـــالبين بالمزيد من النجاحات.

وعلى ذكر اللعب والألعاب أذكر أنه كان علـــى مبعدة قريبة من المدرسة نادي عُمان، واللعبة الـــتي كنت أشاهدها تمارس على ملعب هذا النادي عنـــد مروري في المكان هي لعبة الهوكي، وشيئا فشـــيئا، جذبتني اللعبة التي لا تعرف الفرق بين لاعب عُماني وغيره من المقيمين، فقد تعودنا على مجاورة أشخاص جاءوا من بلدان مختلفة عربية وغير عربية لم نشـــعر بأي فارق بين جار عُماني وآخر وافد، كما لم نشعر نحن — الصغار — بما يمايز بيننا سوى محبة هـــذا أو ذاك، فقد كان الجميع مثلنا، ولذلك لم أعرف، ولم أهتم بأن صديقين لي جارين يفترقان في الديانة عنا نحن الآخرين، والحقيقة أنني لســـت متأكـــد مـــن ديانتهما إلى يومنا هذا، وبالطبع، لا بد أن يكونا قد

عادا إلى وطنهما الأصلي منذ مدة، فلم أُفكر من قبل في سؤالهما عن ديانتهما، كل ما تعودنا، وتربينا عليه معاً، هو الفارق في أنهم يدرسون في مدرسة تابعة لإرسالية غربية "مدرسة بادري"، أما الديانة فهي لله الذي لا يعرف التفرقة والتمييز بين مخلوقاته، لم تكن الأشياء واضحة وضوحها الآن في ذهني، بعد كل هذه السنوات البعيدة، ولكن انغرس معنى أن يقضي الانسان سنين حتى يتقن شيئاً، فالعلم قرين الصبر والدأب وليس قرين "الكسل" و"التواكل" والطموح لابد أن يكون نابعاً من الروح نفسها، مهما كانت المصاعب والعقبات، فتذكر ما كنا عليه له أهميته القصوى طالما ظل فيه ما يقدم لنا العظة والقيم التي نظل في حاجة إليها على إمتداد أزمنتنا، فالحوار المرن مع الآخر كان ولايزال ديدن العُماني ووسيلته في التخاطب مع مختلف الشعوب سواء في الساحل الشرقي من أفريقيا أوتجمعات المحيط الهندي والجنوب الشرقي لآسيا أم العالم الغربي.

عرفت متعة الكتابة للمرة الأولى من عقاب فرضه عليّ صديق والدي، قبل ذلك، كان قد إشتكى معلم اللغة العربية للوالد "حمود" رحمة الله عليه من الضعف الذي أُعانية في اللغة العربية، وأنني أحتاج لتقوية ومتابعة، وما أسرع ردت فعل الوالد حمود، فقد فرض عليّ عقوبة أن أكتب رسالة كل يوم لوالدي ويطلب مني أن أقرأها له ثم يقول لي أن لدي أخطاء كثيرة في الرسالة وعليّ أن أعيد كتابتها وتكرارها، الطريف في الأمر أن الوالد حمود لا يقراء ولا يكتب، لكنني ورغم معرفتي بأنه لا يقرأ ولا يكتب اكتشفت المتعة في الكتابة والقراءة، فلا أذكر أنني تذمرت من هذه العقوبة خصوصاً وأنها زادت من مصروفي بمقدار "مئة بيسه" يمنحني إيها الوالد حمود فوق المئة بيسه التي كان قد فرضها لي والدي، وأذكر أنني سرعان ما أتقنت الكتابة وتولد لدي إهتمام بقراءة القصص التي كنت أستلفها من

صديقي "نُمير آل سعيد" فأنطوي على قراءهــا في المترل لأيام، وربما لأشهر.

لم تكن على أيامي مكتبة في المدرســة، أو ربمــا توجد مكتبة وأنا لا أذكرها، ولا أذكر أنني دخلت أومررت أو شاهدت مكتبــة أو شــبه مكتبــة في مسقط، فعادة القراءة لــدي تكونــت بالصــورة الدراماتيكية التي ذكرها، وقد عرفــت في المرحلــة الإعدادية أن هناك مكتبات خاصة لرجــال فكــر وعلماء دين عُمانيين يحظى بدخولها كل مــن أراد المعرفة، وفي مرحلة لاحقة أدمنت التردد على مكتبة المعهد الإســلامي الثــانوي ومكتبــة الاســتقامة وأصبحت من زبائنهما الدائمين فيما بعد، أذكر أن صديقاً – الله يرحمه – يكــبرني في الســن كــان يشجعني على قراءة دواوين الشعر، ودلفت مرة مع صديقي هذا إلى غرفة في مترله بها كتب كثيرة، لكني لم أستطع أن أجاريه في القراءة و لم يكن في مقدوري

فهم مضمون كتاب كنت قد أطلعت عليه لأن مستواه فوق إستيعابي الذهني بكثير، لذلك ظّلت قصص الأطفال هي الكتب الوحيدة التي أكتشفتها والتي أستفدت منها، قبل أن ألتحق بالمعهد الديني، وكان معهداً حديثاً حسن التجهيز به مسرح هو الأول في عهد النهضة المباركة، وبه مكتبه ممتازة، تضم الكثير من الكتب التي قرأها في السنوات التي قضيتها فيه.

لا أذكر كيف قادتني قدماي إلى قصر العلم وهو في تشطيباته النهائية، ربما كان الفضول أثناء التجوال في حواري وأزقة مسقط، بدءاً من الطويان والمدبغة وميابين إلى حلة الشيخ وكلبوه وغيرها من الحارات، المهم أنني دخلته وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وتباطأت بالقرب من الباب الكبير كي أستوعب المشهد كاملاً، ولمحت السلم الضخم الجميل، لم أعد أذكر التفاصيل، المهم أنه كان في التشطيبات،

النهائية، وكم كنت خائفاً من أن ينالني عقاب نتيجة دخولي، لكنني رأيت رجلاً ، لا أذكر جنسيته، يقترب مني وهو يبتسم، يرتدي ملابس العمل، ودعاني إليه بلغة عربية ضعيفة جداً ليسألني عن إسمي، ولا أعرف كيف جذبني إلى الحوار معه حول القصر، وحول تقسيماته وهندسته الجميلة، ووجدتني أتغلب على خوفي، وأتبادل وأياه الحديث طوال تلك الفترة عن عمله كمهندس والزخارف والمنقوشات الجميلة التي يحتويها القصر الذي سيعيش فيه جلالة السلطان قابوس والذي يعد اليوم مفخرة النهضة المباركة ورمزها يستقبل فيه السلطان ضيوفه من ملوك وأمراء ورؤساء دول ويتقبل فيه أوراق إعتماد السفراء.

زمان المعهد الديني

لم تكن المدرسة السعيدية (١٩٧٠ – ١٩٧٢) في علاقتي بها مؤسسة تعليمية تأسستُ فيها علمياً، وتعلمت من منهج أساتذتها الفكري، وإنما كانت قبل ذلك وبعد ذلك منبراً تعليمياً بالمعنى الذي يصل تقاليد المنابر الفكرية الرصينة والأصيلة، فيعطف معنى المنبر على معنى المدرسة، وتؤسس منهجية خاصة للطلاب علمياً وفكرياً، ولذلك كانت المدرسة السعيدية منبع الإنطلاقة لمسيرة التعليم في كل ربوع عُمان، وظلّت علاقتي ببيت صديق والدي علاقة الابن بأسرته التي لم تكن تتردد في السؤال عن إبنها البعيد عنها، ولذلك انتقلت بعد السنتين الدراسيتين لي بالمدرسة السعيدية إلى مدرسة الوارث بن كعب بولاية السويق في المبني الطيني المستأجر لهذا الغرض، تاركاً ذكريات طفولة عشتها تحت رعاية أسرة

كريمة التي ظللت أزورها بانتظام، لأطمئن على أحوالها، وألتقي بأبنائها اللذين أنزلتهم مترلة أخوتي من أبي وأمي، طوال فترة دراستي بولاية السويق التي أستغرقت عاماً دراسياً كاملاً، إنتهت بإنتقالي إلى المعهد الديني بالوطية وعودتي مرة أخرى إلى مسقط عشقي الأول، العشق الذي لا يمكن أن يمحوه الزمن من أعماقي ما حييت، فما أدين به لمدرستها السعيدية أكثر من أن تمحوه السنوات التي مضت على بدايات تعليمي منذ أربعين عاماً.

أعترف أنني كنت طالباً أميل إلى الحركة والدعابة والتعليق طوال سنوات الإبتدائية، وأحسبني لم أترك هذا الميل حتى في مسيرة سنواتي الجامعية، ويبدو أن تراكم تجارب الحياة مع تتابع السنوات تفضي بالمرء إلى حقيقة هي أن الجد يغلب الهزل واللا مبالاه في نهاية الأمر، وأن العلم لا يعطي بعضه لإنسان إلا إذا منحه هذا الإنسان الجد والإجتهاد كله، وأن

الإهتمام بالعلم والتعمق فيه يقلل من حدة الدعابة والهزل، بل يقضي عليها، ويُستبدل برغبة المناقشة العملية الجادة والإعلان عن الذات أمام الأستاذ الذي يتخذ صورة الأب الذي يغتفر الزلات، والنظر إلى الأراء المخالفة، أو حتى المندفعة، بوصفها محاولات لها فائدتها في آخر الأمر، فخطأ المحاولة يقرب من الصواب بأكثر من معنى، ولا يعرف أحد الأصوب إلا بعد أن يعرف نقيضه، وفي المرحلة الابتدائية، حيث سنوات البراءة والعفوية التي تظل محفورة في الذهن والوجدان، فان هذا السن قرين الحيوية ولازمة مهمة من لوازم الشقاوة، شقاوة ممزوجة بتمرد على سلطة البيت، وقيود العرف والتقاليد، وعلى جدية وهدوء الأساتذة، وعلى الروتين والواجبات المدرسية، ولكن يبقى لزمن المعهد الديني سحره في ذاكرتي، ربما لأنه يرتبط بالطفولة العفوية والأحلام الوردية، أو لأنه زمن يرتبط بالعيش في قسم داخلي له من المميزات الإيجابية الكثير، منها

الإعتماد على النفس وبناء الشخصية والتنافس الشريف في العلم وتكوين الصداقات التي لا تشوبها الماديات، المؤكد أن الأمرين معاً سبب من أسباب التيار المتصل لترابطات زمن المعهد الديني في ذاكرتي.

لكنني أضيف إلى هذا السبب إرتباط زمن المعهد الديني بزيارات جلالة السلطان قابوس المتتالية لهذا الصرح العلمي الذي كان يوليه عناية ورعاية خاصة التي لاتزال آثارها ومعانيها باقية في الوعي، صنعت على المستوى الشخصي مسارات أصبحت القدوة والدليل، هذه الفترة جمعت كل الأحلام الفردية والوطنية، وجعلت من الاحلام الفردية وجهاً آخر من الأحلام الوطنية، كما أسقطت الفردي من الأماني على الوطني من صادق الوعود والآمال في العهد الجديد عهد السلطان قابوس عهد الحرية والعدالة.

أذكر، الآن، بل وفي كل لحظة، يوماً من أيام المعهد الديني الجميلة، حدثت وقائعه في بداية العام الدراسي ١٩٧٥م، وكانْ يوماً من أيام العمر الذي يندر تكراره، إنتهينا من اليوم الدراسي قبل صلاة الظهر كعادتنا، وذهبنا إلى عنابرنا في القسم الداخلي الذي يقع في الجزء الشمالي من مبنى المعهد الديني، وبعد أن إنتهينا من صلاة الظهر، بدأنا نستعد لتناول وجبة الغداء، وما هي إلا لحظة وسمعنا صوت صفارات عادة ما تسبق موكب السلطان قابوس، أخبرني بعض الزملاء أن السلطان قد وصل بالفعل عند مدخل المعهد، ولا شعورياً وبكل عفوية ذهبت مسرعاً صُحبت عدد من الطلاب نتسابق من منا يصل الأول لملاقاة جلالة السلطان قابوس والسلام عليه، وإذا بي وزميلي "عبدالله السعدي" نكون أول الواصلين وبعفوية شديدة سلمنا على جلالة السلطان.

وأذكر أنني ظللت ولمدة ليست بالقصيرة لا أفكر في شيء إلا في التعامل الإنساني الأبوي الذي عاملنا به السلطان أثناء زيارته تلك، ويبدو أن هذا التفكير لازم كل الطلاب معي، وكان ذلك لحسن حظنا إذ أن الزيارة كانت حافزاً قوياً لنا في التحصيل العلمي والمعرفة، فقد مرت مدة ليست بالقصيرة على زيارة السلطان تلك، وكانت تتصدر واجهة الحديث فيما بيننا نحن الطلاب، وكانت نفوسنا تتوق لرؤية السلطان مرة أخرى، خصوصاً بعد أن وجدنا فيه رعاية الأب وعنايته وما حصلنا عليه من إمتيازات بعد زيارته لنا، ولحسن الحظ، كانت المدة منذ تلك الزيارة لم تتجاوز الستة أشهر، إلا والزيارة الثانية قد تمت، ودخل السلطان كعادته باحة المعهد، وتسارعنا نحن الطلاب وعيوننا معلقة بالموكب السلطاني، غارقين في بهجة المشهد الذي قادنا إليه، ومازلت أذكر الكثير من تفاصيل هذه الزيارة إلى اليوم، وأحسب أن هذه الزيارة كانت أول عهدي

بمعرفة الحسم والحزم في شخصية جلالة السلطان ورغبته الصادقة في بناء وتنمية عُمان وجعلها دولة عصرية.

الغريب في الأمر أنني لا أذكر كلمات جلالة السلطان الني وجهها لمدير المعهد الأستاذ يحيى بن سفيان الذي كان أول من استقبل جلالة السلطان، المؤكد أنه أستمع إلى كلمات السلطان الحاسمة والحازمة بوجود إهمال في صيانة مرافق المعهد، وأضن أن الاستاذ "عبدالفتاح ثروت" مشرف القسم الداخلي الذي جاء مهرولاً لأجل السلام على السلطان كانت إجابته سريعة وبكل احترام قال: بأنه ليس مسؤولاً عن صيانة المعهد بل مسؤول عن شؤون الطلاب في القسم الداخلي، وما كان من جلالة السلطان إلا الإماء بقبول العذر ومن ثم إستدار إلى الخلف وخرج من تحت قبة مدخل المعهد وأستقل سيارته، وقد بدى عليه التأثر من حالة

المرافق بالمعهد، وتأثره هذا لا يخلو من مغزى تربوي لم يخطئه فهم من كان حاضرا من المسؤولين في ذلك الوقت، وبالطبع، لم نستطع نحن الطلاب سوى مراقبة الموقف والمقارنة بين عمق صفات الأبوة والحنان وحسم وحزم القائد في شخصية جلالة السلطان، ولكنني سرعان ما أعدت شريط الزيارة الأولى وتحسرت على فوات فرصة التحدث إلى جلالة السلطان في الزيارة الثانية، بل وقلت في نفسي أن الحظ لم يجانبنا هذه المرة، ولكن مع كل ذلك أنحفر في ذهني المعنى العميق الذي غرسته زيارة جلالته الثانية المجسدة لمعنى التضحية وضرورة افتداء الوطن والعمل على تنميته بكل السبل والوسائل، فضلاً عن التصرف الإنساني لجلالة السلطان مع الأساتذة والمسؤولين، ومضينا نحن الطلبة إلى عنابرنا بعد أن خرج السلطان من باحة حرم المعهد لأن زيارته كانت في نهاية الحصة الأخيرة لذلك اليوم، وظلّ كل طالب يلح على الآخر بأن يعطيه استشرافه

لما سيحصل بعد هذه الزيارة، وكان حديث العنابر في ذلك اليوم حول التواضع الذي يتسم به جلالة السلطان وإنسانيته وكرمه اللذين انطبعا في أذهان الشعب العماني عنه، وظللنا في ترقب طوال نهار ذلك اليوم، وفي الليل وقبل أن يهجع الطلاب إلى فراشهم سمعنا أصوات تعلو وتنخفض في الركن الذي يشمل إقامة نائب المدير الأستاذ "عبدا لتواب" ومشرف القسم الداخلي الأستاذ "عبد الفتاح" وبعد هرج ومرج بين ساكني العنابر عرفت أن وزير التربية والتعليم "أحمد الغزالي" يزور المعهد في تلك الساعة المتأخرة، وأخذ صوته يعلو شيئا فشيئا، وقال بأن ما عليه المعهد يُعدّ إهمالاً وتقصيراً ولا مبالاة، وظل الوزير يتحدث ونحن نسترق السمع، يُعيد حديثه في أذهاننا صورة الزيارة السلطانية فتندى العروق وتزهو الروح، وبت ليلتي وأنا أعيش أحلام وردية، هل أمورنا الصغيرة هذه تستحق كل هذا الاهتمام والمتابعة من قبل جلالة السلطان؟ لم أطرح

على نفسي ذلك السؤال، فما كنت قد شاهدته وعشته في تلك السنين أكبر من تفكيري البسيط، فما كنت أتخيل أن هذه المتابعة وذلك الاهتمام من قبل جلالة السلطان هما ركيزتان لمنهاج العمل الحكومي الذي أراده جلالة السلطان في عمر مسيرة النهضة الأربعين سنه الماضية ولا زال وهو ما أشار إليه في كل لقاءاته بحكومته وأحاديثه الموجهة إليهم، كل ما أذكره أنني خرجت من أحلام تلك الليلة وأصبحت على واقع كله نشاط وحركة وعمل، وبدأت الحياة في حرم المعهد الديني على حركة آليات ومعدات ومجاميع من العمال كل في اختصاصه، ودون أن أشعر بانقضاء الأسبوع وروتين الدراسة وثقل الواجبات المترلية، وأنا أسترجع جو زيارة جلالة السلطان، ومضيت طوال الأسبوع، أحاول الإجابة، بيني وبين نفسي، عن سؤال يتردد في خاطري: هل سيزورنا جلالة السلطان؟ وكانت الإجابة على سؤال النفس الذي تردد في خاطري،

مطروحة في اليوم الأول من الأسبوع الثاني من الزيارة، فقد جاء جلالة السلطان بالفعل، وكان المعهد قد تغيرت معالم تربته القاحلة إلى حديقة غناء، وتبدلت حيطان مرافقة وأرضياتها إلى مرايا لامعة، وبدأ جولته سيراً في ممرات وطرقات المعهد انتهت به إلى مسجد المعهد وكان يحاورنا ويتحدث معنا ويسألنا فيما إذا كنا من حفظة القرآن أم لا؟ وطلب من أحد الطلاب لا أذكر من هو أن يقرأ له من آيات الذكر الحكيم، فقرأ الآيات وقد أخطأ في آية فصحح له جلالة السلطان، مكملاً بذلك ما يتمتع به شخص جلالته في شمولية المزايا وتعدد الثقافة وإطلاعه على دينه بالتوازي مع اهتمامه بأمور الدنيا واحتياجات وطنه وشعبه الوفي انطلاقا من تاريخ وجغرافية وبيئة عُمان الاجتماعية.

وبعد أن امتلأت نفسي بالمعاني السامية لزيارات جلالة السلطان في نفسي، صرت محملاً بمخزون لن

يُنسى من الفكر المنير والتضحية الوطنية، وامتلكت الكثير من كنوز التربية والتفاني والإخلاص والجد والاجتهاد، ومرت سنوات الدراسة في المعهد الديني جميلة بجمال فكر علمائنا الأجلاء الذين كانوا يزورون المعهد كل مساء، فمن منا كان يمكن أن يقاوم رغبة الجلوس في مسجد المعهد بين صلاتي المغرب والعشاء للاستماع إلى سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة وهو يتحدث عن الدين وفضائله والخلق النبوي الشريف، ومن ذا الذي كان يرفض متابعة محاضرات الدكتور إبراهيم الكندي، و المغفور له بإذن الله الشيخ سالم بن حمود السيابي، والأساتذة الأجلاء الآخرين، أو من منا كان يمكنه أن يُضّيع فرصة حلقات الدرس التي تنعقد كل يوم في المسجد، فلازلت أذكر أنه وفي إحدى هذه الحلقات وأثناء زيارة فضيلة الشيخ "صلاح أبو إسماعيل" عضو مجلس الشعب المصري الذي طلب إعراب آية من القرآن الكريم "تحديداً" من سورة

البقرة، وصاحب الإجابة الصحيحة سيحصل على مكافأة مالية، وربما لحسن حظي لم يفلح أي من الطلاب الحاضرين إعراب الآية، وكان سماحة الشيخ أحمد الخليلي متواجداً يومها، وانتظرت حتى أكمل الطلاب إجاباتهم إلى أن جاء دوري، ودخلت في مضمار لم أكن من الميّالين إليه للأسف، بسبب الصعوبة التي كنت أعانيها في حب مادة اللغة العربية وأساتذتها، فأدركت حينها أنني في موقف أكون فيه طالباً مميزاً أو لا أكون، وكانت النتيجة أنني.وبقدرة القادر إجابتي صحيحة وأشرحت صدر فضيلة الشيخ صلاح والمشايخ الحضور وظلّ الشيخ صلاح يشيد بالعُمانيين في كل مجمع يكون فضيلته فيه، وأعطاني مكافأة على إجابتي تلك "ريال عُماني" والملفت أن سماحة الشيخ أحمد الخليلي بنفسه قد أعاد لي تفاصيل ذكريات هذا الموقف في زيارتيه إلى كل من "بروناي دار السلام عام ١٩٩٣م، والجماهيرية العظمى عام ٢٠٠٨م" حيث كنت قايم بأعمال السفارة في

الأولى وسفيراً معتمد في الثانية، فسماحته أطال الله في عمره لازال يذكر تفاصيل التفاصيل من ذكريات المعهد الديني ويعرف طلابه لتلك الفترة واحدا واحدا، وجلهم اليوم ذوي شأن في العلم والمنصب، كما أن أستاذي الجليل الشيخ أحمد بن سعود السيابي أمين عام وزارة الأوقاف هو من ذكرني بالآية "١٧٧" من سورة البقرة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئن وءاتى المال على حُبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وإبن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أُولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وكان المطلوب معرفة حكم إعراب "والصابرين "والإجابة أنها منصوبة للاختصاص لأن الله سبحانه وتعالى خص الصابرين، وقال بأن الشيخ صلاح أبو إسماعيل وفي كل

اللقاءات معه ظل يتحدث عن هذه القصة ويشـــيد عالياً بذلك الطفل العُماني الذي أستطاع أن يعرب الآية.

زمان الإعدادية....

في مطلع العام الدراسي الإعدادي الأول، بدأت رحلتي اليومية إلى مدرسة الوارث بن كعب في ولاية السويق، من حيث كنت أقيم ببطحاء الساحل، عبر الطريق المار ببطحاء العود الذي أصبح شبه مهجور والذي يمر بين مزارع النخيل، ثم بطحاء هلال، وقد تعودت في البداية الذهاب إلى المدرسة والعودة منها سيراً على الأقدام صحبة مجموعة من أبنا قريتي، كما لو كنا نقوم بتمرين رياضي يبعث فينا الحيوية والنشاط، وظللت محافظاً على طقوس هذه الرحلة الرياضية التي كان مبعثها أن وسائل نقل الطلاب لم تكن متوفرة، في البداية، إلى أن تيسرت الأمور فقد بدأت تعلم قيادة السيارة وأنا في هذا السن الصغير عندما كنت أجبر العم "ناصر الحمحمي رحمه الله" سائق سيارة والدي "لاندروفر" على تعليمي القيادة

والسماح لي بإستخدام السيارة في الطريق بصحبته بين الحين والآخر، وأصبحت ماهراً وسُمح لي أن آخذ السيارة إلى المدرسة دون رخصة قيادة وأن اصطحب "أخواتي" إلى أول مدرسة للبنات في الولاية مدرسة "حليمة السعدية"، وأنقطعت رحلة السير الصباحية على الأقدام، وأصبح الإنتقال بالسيارة – رغم عدم وجود الرخصة – ميزة لا يتمتع بها إلا قليلون من الطلاب، وكانت فرحتي بكوني طالباً يمتلك وسيلة نقل يقودها بنفسه لا يعادلها سوى فخري بوالدي الذي وفر لي هذه الوسيلة الغير متاحة إلا للقليل غيري حينها.

ولم يكن زهوي بالسيارة يرجع إلى أنها وسيلة النقل الأولى التي أقودها بنفسي فحسب، بل أضيف إلى ذلك أنها الوسيلة التي أسهمت إسهاماً كبيراً في أن أنقل معي أخواتي البنات، وذلك منذ أن فتحت مدرسة حليمة السعدية أبوابها لبنات الولاية كي

يتعلمن بشكل رسمي، ودعت مدارس الولاية وغيرها في كافة ربوع عُمان لإلقاء وهن التخلف والجهل، وقاومت العادات السيئة في المجتمع، كذلك مدرسة الوارث بن كعب فتحت الباب لي كي أنال رعاية والدي عن قرب وأعيش بين أخوتي، ولذلك لم أكن أستغرب الدور الذي قامت به هذه المدرسة في بلورة حياتي الثقافية والاجتماعية سواء من حيث كونها مدرسة من طليعة المدارس الحديثة، وكنا نفخر أنها من المدارس الأولى في عصر النهضة، وبقدر ما كانت مدرسة الوارث تدفعني أمضي في الطريق نفسه الذي مضيت فيه منذ المدرسة السعيدية مروراً بالمعهد الديني، فقد كنت أقرأ في جريدة عُمان والوطن كل يوم الجديد من إنجازات النهضة العُمانية، وهما الجريدتان اللتان صدرتا مع الأيام الأولى للنهضة العمانية وسرعان ما أنتشرتا في كافة ربوع عُمان.

ويبدو أن التنافس كان على أشده في مدرسة الوارث بن كعب، فكان كل طالب يتبارى مع الآخر في إبراز قدراته العقلية ومواهبه، كما كنت مستمعاً نجيباً لأولئك المتميزين في الشعر ومحباً للتمثيل ومشاركاً في رهط الكشافة المدرسية، وكان قد فتح "العم مبارك المنعي" "كافتيريا" تقع بين الطريق العام والمدرسة، إذ كنت أتردد على الكافتيريا كلما شعرت بالجوع خلال الفسحة، وأجلس مع أقراني من الطلاب، نلعب ونتشاجر، نأكل ونتزاحم، مطلقين العنان لطاقاتنا الجسمانية، وكان ملعب كرة القدم الواقع أمام المدرسة، يجمع بين طلاب فصول المرحلة الإعدادية الأولى والثانية، ويضم إلى هؤلاء خليطاً يأتي إليه من المرحلة الابتدائية، ناهيك عن أولئك الذين لا تبعد أماكن سكناهم عن المدرسة فضّلوا على علاقة قريبة بساحة الملعب، يأتون إليه وقت المساء مزودين بالملابس الرياضية والنشاط، ويزودونا بما كنا لا نعرفه من شروط لعبة كرة القدم

ومشاهيرها وأعرق أنديتها، ويتطلعون إلى أن يكونوا ذوي شأن في فنون اللعب وننظر إليهم في لهفة باحثين عن موهبة أو ميزة نتفوق فيها على غيرنا لننال إعجاب من يكبرونا سناً ويسمحوا لنا باللعب معهم.

ولم يكن المزيج الغريب غير المتجانس من أعمارنا يكشف عن مواهبنا في كرة القدم وعشقنا لها فحسب، بل كان يكشف بالقدر نفسه عن انطلاق الرياضة على أرض عُمان وتقبل المجتمع العُماني المحافظ لرياضة جديدة لم يكن على دراية واسعة بها، فالألعاب الشعبية موجودة في كل شبر من أرض عُمان وهي تختلف في منطقة عن الأخرى حسب ظروف الحياة والطبيعة البيئية فالألعاب الساحلية تختلف عن تلك الموجودة في الجبال، ولأن المشاعر الوطنية كانت متوهجة في عصر النهضة العُمانية، خصوصاً بعد فتح سلسلة من المدارس العصرية،

وظلت واعدة بأحلام المستقبل الزاهر والحرية والرخاء، كانت الحوارات بين تلامذة المدرسة تجمع ما بين العلم والثقافة والرياضة والدين في نقاشات مليئة بالأمل في مستقبل مشرق، تبعث عليها أحداث التنمية المتسارعة كل يوم، فقد كنا نحيا أيامها زمن وعود جلالة السلطان قابوس التي تحققت جميعها.

ولكن لم يكن النقاش رياضياً طوال الوقت، فقد كانت الرياضة تختلط بالثقافة، والطموحات العلمية الكبيرة تتداخل مع أحلام الشباب، وأذكر أننا كنا ندخل في الهزل من باب الحسد من تلامذة الفصول الأخرى بأننا نحن تلامذة الأول إعدادي محضوضين كون فصلنا يضم فتاتين تحضران معنا الفصل كمستمعتين، فمدرسة البنات في الولاية لم تكن وصلت فصولها إلى المرحلة الإعدادية بعد، وكانتا هاتان الفتاتان أبنتين لمدرسّين قد أحضرا عائلتهما من جمهورية مصر العربية، وكان التلامذة يأتوا إلى

فصلنا بين الحصص ليتمتعوا بقربهن والحديث إليهن، وربما الفوز بقلوبهن، وكنا نحن أبناء الفصل نتلفت حولنا، فإذا بتلامذة الفصول الأخرى يزاحموننا فعلاً في أوقات الفسح ويسعون إلى الحديث مع التلميذتين المستمعتين اللتين تصورنا أنفسنا أوصياء عليهن، وما أكثر الاشتباكات الكلامية التي كانت تحدث بسبب ذلك، لكن ظل الأدب والاحترام في تعاملنا مع الزميلتين يلازمنا طوال فترة وجودهن معنا، وأصبحت زمالتنا معهن، موضع فخر لنا ولا زلنا نذكرهن بكل خير، فطبيعتنا العُمانية تحتم علينا احترام الضيف وحفظه في عرضه وماله، ولا أظن أن شعورنا بالوصاية على الزميلتين حالة خاصة بنا وحدنا، وإنما هي حالة متكررة على اختلاف الأجيال الدراسية على امتداد المدارس الموجودة في مدى الأرض العُمانية كلها، فمن الواضح أن أثر البيئة الاجتماعية العُمانية بالغ العمق على الطلاب في سنواتهم الدراسية الباكرة، وأن العلاقة بين شخصية

المدرسة والبيت متبادلة، وذلك على نحو ينقل المُثل العليا من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة، في حال من تبادل الأثر والتأثير في تأكيد القيم في نفس الطالب الذي يتطبع بما غرس فيه إلى الأبد، والعكس صحيح بالقدر نفسه، حيث تنتقل جاذبية التعلم إلى حياة الطالب المستقبلية، فيتحول إلى مواطن مخلص لقيم وطنه وعاداته وتقاليده.

وما أكثر هذا النوع من المواقف في حياتنا بسلبها وإيجابها، فذاكرة كل واحد منا مليئة بنماذج هذا النوع من المواقف التي دفعتنا إلى حب المدرسة، والتي دفعتنا إلى كره بعض المقررات فيها على امتداد حياتنا المدرسية، ابتداء من المرحلة الابتدائية وانتهاء بالمرحلة الثانوية، حيث أن أثر أستاذ المادة في مثل هذا السن هو مرحلة تأسيسية في نفس الطالب، وعملية تأصيلية في الوعي الذي سرعان ما يعمر بحب تلك المادة أو كرهها، ويظل أثر الحب أو الكره

عالقاً في النفس، لا يمكن محوه من الذاكرة عند استرجاع ذكريات الصبا واستعادة سنوات الدراسة التي لا تخلو أبداً من فرح أو حزن.

أنا شخصياً ظللت كارهاً للنهج التلقيني وكل ما يرتبط بالواجب المترلي، ولا أزال على نفوري من عملية حشو عقل الطالب إلى اليوم، وأكره أن أقوم بعملية حفظ أبيات من الشعر، بل إني أسرع الناس نسياناً للأسماء إذا ما غاب صاحب الاسم عني لفترة، أذكر أن زميلي "سليمان الخنجري" كان يكتب الواجبات نيابة عني بسبب كرهي للنقل وتكرار كتابة الدرس، وكان على زميلي أن يكتب عني كل مرة الدروس التي لا أحبها، فرحاً بما يتيحه له ذلك من سخرية من زميله الذي لا ينقصه الذكاء ولا الإمكانات المادية والصحية، ولا تستطيع كل هذه العوامل أن تجعله يحب بعض المقررات، أو يقوم بمحاولة بناء الود مع أساتذها، وكنت لا أبالي من

سخرية زميلي بل أضحك منها، تماماً كما أضحك من نفسي في كل مرة أختبر فيها قـــدرتي في تلـــك المواد، ففي كل مرة تكون النتائج فاضحة ومخيبة إلى درجة الضحك الذي لا يخلو من أسى.

وأقر أنني في كل مرة أقع فيها في فـــخ الاختبـــار يمتزج خوفي من قدرتي في تلك المواد بالأسى الذي هو تعبير عن رغبة محبطة بتجاوز هـــذا الضـــعف، وأعترف، كذلك، أنني كل مرة من هـــذه المـــرات أتذكر أفعال بعض الأساتذة التي جعلتني أنفر مـــن المواد التي يدرسونها نفوري من شخوصهم، فقـــد كانوا قاسين قسوة بالغة دون مبرر، وكان عقـــابهم للطلاب على هفوة بسيطة ضربة بحافة "المســـطرة" على ظهر اليد وكانت حافـــة "المســـطرة" تـــترل كالسكاكين في صباح الباكر، فتترك في الوعي أثراً لا يمكن نسيانه، أي نعم كنت أذاكر مقرر هـــؤلاء

الأساتذة، لكن خوفاً من عقابهم لي ولزملائي على السواء وليس حباً في المقرر.

الغريب أنني أذكر جيداً اسما الأساتذة الذين كانت أفعالهم تُنفر من المقرر الدراسي الذي كانوا يقوموا بتدريسه لي، ربما كانت ردة فعل الوعي من شخصية هؤلاء هي الباعث اللاشعوري على تذكر أسمائهم التي هي رمز لحضورهم المرتبط بالقسوة والعقاب، ولكن إذا كنت أتذكر أسماء هؤلاء الأساتذة الأُول الذين اقترنوا في ذهني بحالة الكره الأول لمقرر دراسي، ومن ثم أصبح رمزاً لعلاقة التبادل بين المقرر الدراسي ومن يقوم بتدريسه، وبين محيط المدرسة والبيت، فإنني أذكر أسماء الأساتذة الأُول الذين جعلوني أحب جل المقرر الدراسي، وأفتن ببعض المواد، وأعشق أخرى إلى الدرجة التي جعلتني متميزاً في بعضها، ومحباً للشعر وقارضاً مبتدئاً له، ولقد ظللت محافظاً على هذا الحب إلى عهد قريب، وذلك

من قبل أن تتدخل التزامات الحياة الأسرية، وتؤدي ظروف العمل إلى الابتعاد عــن مجــالس الشــعر والاستماع إليه.

زمان الثانوية العامة والدراسات الإسلامية...

بدأت أحلامي العلمية والطموحات الشبابية في التشكل والنضج منذ أن التحقت بالمعهد الإسلامي الثانوي وبدء عامي الثانوي الأول فيه، وكانت مصادر تحقيق الأحلام والطموحات متاحة بدءاً بمكتبة المعهد، التي كنا نجتمع فيها في أوقات المساء للقراءة والاستذكار ومناقشة ما قرأناه، وكانت تجربة بالغة الثراء لأنها علمتني القراءة بعمق، والاستعداد لمناقشة خلاصة ما أفدته من قراءة هذا الكتاب أو ذاك، وإلى جانب مكتبة المعهد، كان هناك التنافس الشديد بين طلاب المعهد والتسابق في تنظيم الوقت بين مذاكرة كتب المقرر والكتب الثقافية والعلمية والقصصية الأخرى، وكانت نتيجة ذلك بروز شعراء ومثقفين وسفراء وقضاه وعلماء دين وأساتذة، منهم من لازلت على تواصل معهم

ومنهم من انقطعت الاتصالات بيني وبينهم، واخترت القسم العلمي من الشهادة الثانوية العامة، ولازلت أحتفظ في مقتنياتي الخاصة، بعدد من الصور التي تذكرني بأيام الثانوية العامة، ويصعب عليّ أن أتناسى – عندما أتذكر أيام المعهد – الأصدقاء الأعزاء، أولهم سالم الوهيبي الذي رافقني الطريق إلى جامعة محمد بن عبدالله في فاس بالمملكة المغربية، وقد أنضم مثلي إلى وزارة الخارجية، وقد سبق سالم في التعرف عليّ، عدنان الأنصاري ومحمد الأنصاري ومحمد الكندي وسليمان الخنجري وخليفة السعدي وعبدالله السعدي وسيف السعدي وهلال السعدي ومحمد الجابري وعبدالله الريامي وراشد البداعي وسعود البداعي وسيف القاسمي، الذين كانوا قد أتوا من مدرسة الوارث بن كعب، واستمرت صداقتنا وعلاقتنا الحميمية إلى يومنا هذا، وقد تركت تلك الأيام في أنفسنا ذكريات جميلة جمعتنا ببعضنا البعض، وقد كان محمد الكندي هو أكثر المجموعة

مرحاً وحركة، وكان أجملنا صوتاً في ترتيل القرآن الكريم وأحسننا خطاً، أما سليمان الخنجري كان أسبقنا إلى المسجد، وكان ملتزماً، ما أكثر ما وضعناه في مواقف حرجة ورسمنا المقالب المازحة له، وما أكثر ما استخدمنا طريق الباطنة ذهاباً وإياباً إلى ولاية السويق، وإلى المعهد، أيام عطلة الأسبوع، وفق جدول يُقنن إستخدام سيارتي الخاصة أسبوع وسيارة راشد البداعي إسبوع أخر.

ولا أنسى أحمد داود، وقد عرفته طالباً مثابراً، وكنت تعودت الإستذكار معه، وحرصت على أن أكون في نفس الدور الذي يسكنه بالقسم الداخلي، وما أكثر ما ذهبت إلى بيته، وإلى قريته، فتبادرني أسرته الكريمة بحسن الإستقبال، وأظنه كان يسعد برفقتي وإطرائي له لأبيات شعر المتنبي التي كان يلقياه عليّ بشكل غنائي متميز، وصادف أن كنا نحن الإثنان مستغرقين في غناء الشعر والضحك، وفي

غمرة المرح ظهر أمامنا مشرف القسم الداخلي "الأستاذ فوزي" وصاح قائلاً: إسكتوا، فإنكم تزعجون زملائكم، وظلت صيحة المشرف في أذهاننا نتذكرها كلما جلسنا للإستذكار، والتي أُوقن أنها أسهمت إسهاماً إيجابياً في تطوير إسلوب إستذكارنا وإستيعاب ما نستذكره.

أما الأشخاص الاستثنائيين في هؤلاء هم أولئك الذين أعدّهم مثالاً للعصامية وبناء الذات، وقد جذبني معهم حب الخروج للسينماء يوم الإثنين من كل أسبوع لمشاهدة الأفلام العربية من خلال الشاشة المفتوحة في مقر شركة نفط عُمان بسيح المالح، وكان جمال اليحمدي وصقر اليحمدي وبذر الكندي وعبدالوهاب المنذري وسالم المحروقي "المشاكس" ومحمد المحروقي وسيف الكلباني وعبدالله الحارثي وسيف العامري وعبدالله السيابي أقرب إليّ بحكم السن المتقارب، فلم نكن نفترق، حتى حين

كان عبدالوهاب يصر على البقاء في مكتبة المعهد للإستذكار، وكان محباً للأدب، وآثر هذا الطريق، وسلّما كل من جمال وصقر نفسيهما تماماً إلى ميولهما المرح وسرعان ما رأينا بروزهما، خصوصاً بعد ما تأقلما على الحياة في مسقط، وقد إستقر جمال في مسقط، ومرت السنوات اللازمة لكي يترقى إلى درجة مستشار بوزارة الخارجية، أما صقر فلم أعد أراه وليس بيني وبينه أي إتصال، وقد إكتملت صحبة المعهد الإسلامي الثانوي مع كافة الطلبة، وهم كثر لا أستطيع ذكر أسمائهم جميعاً، ولا تزال مستمرة مع غالبيتهم، رغم السنوات التي باعدت ما بيننا، ورغم الموت الذي أخذ منا بعضهم.

كنت من مرتادي مطاعم الحمرية في روي، بل من كبارالعشاق الذين يهيمون بشوارع محافظة مسقط الكورنيش ووسط مدينة روي على وجه التحديد،

وما أكثر ما كنت أركب سيارتي من المعهد إلى مسقط وأترك نفسي أهيم بالساعات في ذكريات أزقة مسقط كيف كانت وكيف أصبحت، أرقب إضاءة الشوارع، وأجلس على المسطحات الخضراء التي أنسى فيها نفسي وأنا أنظر إلى الزهور من حولي، ولم يعدل متعة الجلوس على المسطحات الخضراء عندي سوى النظر إلى التنمية العُمرانية المتسارعة في شوارع مسقط المختلفة وغيرها في روي والوطية والقرم والشاطيء والخوير والسيب والتي تحتفظ اليوم بعمارة جميلة لا تعرف الكتل الإسمنتية الشائهة القبيحة الموجودة في عمارة بعض مدننا العربية غريبة عن بيئتنا وأسلوب حياتنا الإجتماعية، وأذكر أنني كنت أسير في هذه الشوارع، قبل أن ينتهي بي المطاف إلى بيت الوالد حمود "رحمه الله" في حلة الطويان بمسقط لإقتناص فرصة الجلوس معه والإستماع منه إلى نوادر حكاياته وقصص كفاحه، وكانت متعة السير تتزايد

بهدوء هذه الشوارع ونظافتها ونضارة الوجوه التي تسير فيها فضلاً عن بهجة الأزياء العُمانية التي لانزال نحافظ عليها، ودارت الأيام، وازدادت شوارع محافظة مسقط هدوءاً، وإزدانت أواسط مدنها ومناطقها وقراها، وحافظت على أهمية دائرة جغرافيتها، ووازنت في مركز ثقلها التجاري، وصارت كل ضواحيها فضاءات لحركة رأس مال متجانس في أهدافه ومطامحه وأساليبه، وأتسعت شوارعها لحركة السيارات المتزايدة بلاضجيج أوصخب ولا تلوّث، وتجد المارة أكثر إنسجاماً وهدوء الذي هو إستجابة طبيعية لكل ما حولهم، والكل يسير في أمان وإطمئنان، يرقب التناغم المعماري الذي يشغل الإنتباه ويثير الإعجاب ، أقول أن أفاريز العمارات وواجهاتها تشغل إنتباه المارة، وتثير إعجابهم، خصوصاً وأن الأسلوب المعماري العُماني يبتعد عن الكتل الخرسانية البشعة، ويتحاشى

المزيج الممل في التكرار، ويلغي إختنـاق الزحـام والغبار.

ويحلوا لي، كثيراً، أن أستمع إلى أصدقائي في المعهد الإسلامي الثانوي، أستشرف من حديثهم خطـط المستقبل، والإستمتاع بتجليات النهضـة العُمانيـة الجميلة، وهم يتحدثون عن تقابل الحياة ما قبل سنة السبعين وما نحن فيه اليوم من رغد العيش ورفاهية، ويقف بي حديثهم على المعاني التي لم ألاحظها مـن قبل، ومن ذلك مثلاً التقابل الذي يتحدثون عنه بين الأهداف والوسائل، ويقرأ المتحدثون في هذا التقابل الفارق بين عصر النهضة الذي يرى الهدف في بنـاء الإنسان والمكان وفق الإمكانات المتاحة، وترد وحدة الهدف هذه إلى التكاتف الذي رسخ أركانه ودعائمه جلالة السلطان قابوس وفق مكونات الدين والتراث والتاريخ العُماني بتطلع الحاضر إلى المستقبل الواعد، وبين فترة ما قبل عام ١٩٧٠م الـتي لا تـرى، ولا

يسمح لها أن ترى، التنوع في وحدة مكونات المجتمع العُماني، ولا المستقبل الذي يحلم به الشعب، ومن ثم لا ترى إلا السراب والشمس والعراء والطرق المتربة المحفورة بالأخاديد، تسير فيها السيارات في قفـــزات عنيفة تجرّ وراءها ذيلاً كثيفاً من الغبـــار، تؤكـــده ذرات الطين الناصع المتساقطة منه، التي إذا ما نزلت على زجاج السيارة الأمامي حجبت الرؤية، وقـــد تعّود أصدقائي، عاشقي النهضة العُمانية، أن يلفتـــوا إنتباهي إلى علاقة التنمية بفكر جلالـــة الســـلطان قابوس، بالمعنى الذي يجعل العقل يتدبر في العلاقة بين الحقبتين المتقابلتين من التاريخ العُماني، حيث تمـــرح النفس في إنجازات جبارة تحققت في عصـــر نهضـــة جلالة السلطان قابوس والتي تضيف الكثير إلى معنى الإمتداد الحضاري في الإنســـان العُمـــاني، مقابـــل الإنحسار والتقوقع في المكان قسراً في فترة ما قبل عام ١٩٧٠م.

ولقد أعادت هذه الأحاديث إلى ذهـــني مفـــاهيم مستنيرة من فكر جلالة السلطان قابوس، وتفجرت ترابطاهَا في ذاكرتي، عندما ألمس ما أنا فيه اليـــوم، متأملاً إهتمام جلالته بأدق تفاصيل حياة المـــواطن العُماني، إبتداء من دلالات جولاتـــه وتوجيهاتـــه، مروراً بالخطط التنموية على المســـتويين البشـــري والخدمي، وإنتهاء برقابتـــه المســـتمرة علـــى أداء حكومته، وقد ظللت أتابع التطور التنموي بحـــرص بالغ، بحيث أجعل نصف عقلي يستعيد ترابطـــات الذاكرة التي تثيرها كل مرحلة من مراحل النهضـــة العُمانية، وأولاها مرحلة إطلاق الوعود الصـــادقة، والتي تحققت جميعها دون مغالاة ولا نقصان، وهي اليوم علامة على زمني الجميل، وقد أعادني حديث أصدقائي في المعهد الإسلامي الثانوي إلى ذكريـــات حياة ما قبل عام ١٩٧٠م، وظللت أتأمـــل صـــور الحياة القديمة التي إلتقطتها قدرات ذاكرتي، من مباني طينية وشوارع متربه، واقفة على تفاصيل حياة رتيبة

ومملـه، كاشفة عن الفقر والجهل والتخلـف، فقـد مضى وقت طويل قبل مجيء جلالة السلطان قابوس، عانا فيه الشعب العُماني الكثير ونهش الحزن وجهـه المحروق بالشمس ورأسه المنكس بـالقهر والـذل، وتتوقف ذاكرتي وقفات تفصيلية على أساليب الحياة قبل السبعين وأساليبها المثالية في عصر النهضة الـتي إقترنت بحلم أصبح حقيقة، أما كيف تم تحقيق هـذا الحلم، فالإجابة عنه ماثلة في صدق الوعود وحكمة وعزيمة الربان الذي قاد السفينة بكل إقتدار ونفث في مسيرة النهضة فكراً رائداً وحكمة شهد بها القاصي والداني ووضع العدل مكان الظلم والقبح بالجمال، والفوضى بالنظام، وأعاد الحرية للشعب الباحث عن الإبداع والتميز في مشهد التلاحم المتميز بين القمة والقاعدة.

أحسبني تعلمت نهج جلالـة السـلطان قـابوس وشربت منه والإعجاب به من ما لمسته في زمـاني

الجميل، حيث التنمية المدروسة التي تشير إلى هـذا النهج القابوسي المتفرد، والذي أخذ على عاتقه أن يجعل من عُمان دولة عصرية، وأن تأخذ وضعها في صدارة العالم المتحضر وطليعته، ولم تفتر همت جلالة السلطان طوال العقود الأربعة الماضية عن تنفيذ مـا وعد به وما تطلع إليه فنجح في تحقيق ما كان ممكناً لولاه، ودليل ذلك ماثل في الطفرة العُمرانيـة الـتي شملت ربوع عُمان كلها، والشوارع الفسيحة الـتي غطت كل شبر منها متواصلة بينها بالميادين والجسور التي أخترقت الجبال الشامخة وجمعت ما بين المناطق من الشمال إلى الجنـوب والشـرقية بالوسـطى والداخلية إلى مسندم، والأحياء الجديدة التي ملأت القفار والبوادي وسفوح الجبال وتلك التي حلـت محل العشوائيات، وأضيف إلى ذلك إضاءة الشوارع والمدن والمنتزهات، وإنشاء شبكات متكاملة مـن الخدمات، جنباً إلى جنب إنشاء المـدارس الحديثـة والمعاهد والجامعات والكليات في مختلـف الفنـون

والمعارف، جنباً إلى جنب مع تحديث المدن والقرى والواحات في سباق محموم، لا يمايز بين إنشاء المستشفى أوالمسرح أو المتحف أو الملعب أو المعهد العلمي أو الحديقة الجميلة أو الأوبرا أو مؤسسات الدولة.

وأتصور أن الأجيال اللاحقة لنا لن تعرف الكثير من عناصر تفرد النهضة العُمانية عن غيرها إلا بعد أن تشعر بحماسة جيل النهضة الذي عايش حقبة ما قبل عام ١٩٧٠م، ودخل في زمن الأسئلة التي أخذت تقارب بين زمنيين، وشيئاً فشيئاً ستتكشف لهذه الأجيال جوانب كثيرة من ملامح صورة الملحمة الجميلة، وأن وراء الملامح الجميلة هذه قيادة حكيمة وشعب وفيّ، ولم يكن تصوري في مدى معرفة الأجيال اللاحقة لنا بعناصر تفرد النهضة العُمانية راجع إلى رغد العيش وسهولة حياة هذه الأجيال، وإنما راجع إلى ما رسخه فكر جلالة

السلطان قابوس في نفسي وما أثارته مشاهد النهضة نفسها في إسلوب الحياة، لقد اكتشفت، وأنا من عاش مفردات البناء من الأيام الأولى للنهضة، أن كل ما هو موجود على سطح الأرض في كل المناطق العُمانية والمحافظات والولايات هي منجزات أُنشئت في زماني الجميل، كما أكتشفت أن مسقط لم تعرف المسرح والأوبرا والحديقة ومدرسة البنات والمكتبات والمتاحف والشوارع الواسعة والمواصلات الحديثة وإنارة الشوارع والمياه الصحية والأحياء الجديدة والجسور إلا في زماني الجميل وبتوجيه وتخطيط من جلالة السلطان قابوس، ومتابعة شخصية منه لم تتوقف عن التشبث بتنفيذ الوعود الصادقة على أرض واقع متحول تطّلع إلى تحقيق الأحلام الكبرى، وكانت وعود الداخل العُماني وتنفيذها صدى لوعود التحديث الذي لم يخل من التطلع إلى المزيد من إستقلال القرار، والرغبة في أن تكون النهضة العُمانية تمثيلاً مجسداً للقوة الحضارية للشعب

العُماني، فمن الطبيعي أن تستعين النهضة العُمانية بالأشقاء والأصدقاء على تحقيق تلك الوعود والأحلام من مهندسين وأطباء وعلماء وخبراء، لبناء المدارس وإنشاء العمارة وتطوير الحرف والصناعات وتدريب العمالة الفنية.

ولا أريد أن أمضي في إحصاء منجزات النهضة العُمانية لأنني لن أستطيع وإن إستطعت سأحتاج إلى مجلدات وسنين من الوقت لإتمام ذلك، حسبي التوقف عند مسيرتي في حرم المعهد الإسلامي الثانوي، ولا يعني ذلك أنني أنقطع في الحديث عن زماني الجميل، ولكن أرغب في الإسترسال بالقول أنني قد عاودت صلتي بحرم هذا الصرح العلمي وقد أصبح كلية للحقوق عندما كنت إستاذاً متعاوناً للقانون الدولي على مجموعة من طلبة كلية الحقوق،

لكن تقلب الأيام وتغيرات المكان، كـــان نتيجتـــها إنصرافي عن زيارة مرابع الذكريات وتدريجياً، تغيرت معالم المكان إلى ما هو أجمل وتبـــدلت الشـــخوص لكنني لم أنسى أيامي التي عشتها فيه وقد أســـتُبدل بالذي هو خير، ولم أنسى، ما قد أعتدته من زيارة مسجد المعهد الإسلامي الثانوي الذي كنت أصلي فيه في كل مرة أكون قريباً، ولا تنفصل ذكرياتي عن مسجد المعهد الإسلامي الثانوي عن ذكريـــاتي في جامع السلطان قابوس في روي وهو المسجد الأول الذي أسسه جلالة السلطان على التقوى، وقد شمل بسنته الحميدة هذه جلّ مناطق ومحافظات عُمـــان وزيّن سلسلة عقد هذه الجوامع بجوهرة ثمينة وفريدة هي جامع السلطان قابوس الأكبر بولاية بوشـــر في محافظة مسقط الذي يُعّد اليوم مـــن أهـــم المعـــالم

الحضارية وما أكثرها في زماني الجميل، وكانت ذكرياتي بالتأكيد جعلتني أدرك صدق وعود جلالة السلطان ومدى قوة تأثيرها في توقد همم وطاقات الشعب العُماني وجعله يتحدى قيود ومعايير وطرق الحياة التقليدية التي أُعيق بها لعدَة سنوات قبل عهد النهضة بسبب الفاقة وغياب الحرية، بحيث أن العديد من العُمانيين بدوا أكثر من جاهزين لتحمل المسؤولية، ولا حاجة للقول أنه أصبح في زماني الجميل من الأسهل والأكثر إرضاء لهم الجد في العمل والإجتهاد في العلم وبناء عُمان من أن يحزموا أمتعتهم والسفر لكسب العيش خارج الوطن، نعم أصبحت عُمان مكاناً أفضل للعيش وللأمن والأمان، لأن تفجر الحرية حفز تفجراً مُفعماً بحب الوطن وقائده، لقد كان لهذه العلاقة تأثير وجداني عند كل

عُماني وعبر كل شبر من أرض عُمان قوى من رابطة العلاقة بين كافة شرائح المجتمع، فقد نالت المرأة الحرية والمساواة مع أخيها الرجل وتزايدت فرص العمل أمامها وأُعطيت الفرصة لدور رفيع في السلطة التنفيذية وتدنت الوفيات بين الأطفال.

أخيراً، لم يفتح المعهد الإسلامي الثانوي فقط الطريق أمامي لمزيد من طلب العلم والإستفادة من المجتمعات المعرفية، بل مهد الطريق أيضاً لبناء معايير حياتية مختلفة، سأتناولها بمزيد من التفصيل لاحقاً، لكن يكفي القول هنا أن تلك المعايير أنشأت ساحة أكبر من الإدراك والتفكر، بعبارة أخرى، عزّزت مرحلة المعهد الإسلامي الثانوي حرية الفكر لديّ، فعندما يظهر معيار علمي معيّن ويثبّت نفسه على

مسرح حياة الفرد، يتبناه هذا الفرد بسرعة أكبر من أي معيار آخر، ففي المعهد، إنفتح أمامي الطريق لتشكيل معالم الطموحات الشخصية وتوسعة دائرة المعرفة، بالتزامن مع النضوج العقلي كمرتكز نحو طريق المستقبل العلمي، فهذه المرحلة تعتمد على إقتناص المعلومة والإجتهاد وقوة الملاحظة، فقد بدأ مزيد من المعلومات يترلق عبر العقل، بفضل تطور الوسائل العلمية وإنتشار المؤسسات الثقافية والأجهزة المتطورة وأدوات الإتصال الحديثة في كل عُمان، وتزامنت هذه المرحلة التي بثت إنطلاقة الطموحات الشخصية، مع تحقيق كل مكوّنات الحياة العصرية على المستوى الوطني، من رغبات الناس في التحدث بعضهم الى بعض عبر المسافات الطويلة من خلال شبكة الهاتف، وتطور جهاز

الفاكس، وانتشر الحاسوب وتطور نظام تشغيله على المستوى العام والخاص، وللتلخيص، شملت مرحلة المعهد الإسلامي الثانوي، تفاعلي الشديد مع المخزون الفكري وتفاعلي مع طفرة ما أُنجز وإشراقة ما هو آت، ثم جاءت مرحلة الجامعة، وزادت الإيمان بفكر جلالة السلطان أكثر قليلاً، وتتعلق بتفاعلي الشديد مع أي خطاب لجلالة السلطان في أي شأن من الشؤون وعلى أي منبر، وهذا كل ما تعنيه الحماسة في المرحلة الجامعية، باختصار، أنجبت مرحلة المعهد الإسلامي الثانوي، مرحلة الجامعة والطموح الشخصي ومكنتني المرحلتان من التفاعل أكثر مع مزيد من إنجازات ووعود جلالة السلطان قابوس الصادقة في زماني الجميل.

زمان الإبتعاث إلى الجامعة .....

خرجت وزملائي في آخر يوم من إمتحانات الشهادة الثانوية العامة النهائية، التي كنا قد أجريناها في مركز إمتحانات مدرسة جابر بن زيد الثانوية بمنطقة الوطية، بقناعة تامة من أن الإمتحانات لم تكن سهلة، وذهبنا في ذلك اليوم إلى أشهر مطعم لبناني، وهو قريب من مجمع "عُمان والكويت" التجاري بمدينة روي وقلت لمن رافقوني أنني تعودت على تناول الطعام في ذلك المطعم كلما سنحت لي الفرصة، ولا زلت أذكر الملامح المتباينة للزملاء الذين لم يتعودوا الأكل في هذا المطعم الغالي الثمن نسبياً، وتجمعنا على الطاولة في ذلك اليوم كما لو كنا نُقيم حفلة رمزية للنجاح، رغم أن أي منا لا يعرف نتيجته بعد، فربما إحساسنا بالفرحة والإنعتاق

من روتين الإستذكار هو الذي أوقد لـــدينا رغبـــة الإحتفال دون التفكير في نتيجة الإمتحان.

ولا يبدأ تاريخ إختيار التخصص الجامعي الـــذي رغبت فيه فعلياً من آخر يوم في الإمتحان، أو المطعم الذي إحتفلت فيه مع زملائي، أو عند إحساســـي بالدخول إلى عتبة الجامعة، وإنما يبدأ تاريخ الإختيار في وجداني وعقلي من اليوم الذي حاولت فيه شـــد إنتباه جلالة السلطان قابوس عند زيارتـــه لمدرســـة الوارث بن كعب في ولاية السويق، وقدرته السحرية على أن يحيل إعجاب مجموعة من براعم نهضته به، إلى حب عارم متأصل في داخلهم أصبح يســـري في عروق كل فرد من أفراد الشعب العُماني، وأصـــهر عشق عُمان الأرض داخل بوتقتها البشرية فأصبحوا سبيكة إنسانية متميزة ديدنها الجد والعمل والتسامح والإحترام، وقلت لزملائي هذا اليوم الذي نحن فيـــه هو ثمرة فكر جلالة السلطان قابوس الذي جعل لنا

دوراً طليعياً في التعّلم، ودوراً تأسيسياً في تبني نهجه النهضوي، فنحن من الأفواج الأولى لعصر النهضة التي ستُبتعث إلى خارج البلاد لتلقي التعليم الجامعي في الدول الشقيقة والصديقة، ولم يكن زملائي أقل مني فرحاً وغبطةً في ذلك اليوم، خصوصاً بعد أن برز النقاش بيننا حول الطموح والتمنيات وحول التحضير لإجراءات البعثة والتخصصات الأكثر طلباً في سوق العمل العُماني، وقاطعني أحد زملائي بسؤاله: لكن لماذا تلح كلماتك على فكر السلطان ونهجه النهضوي في حديثك لنا الآن؟ فأجبته بأنني لم أكد أصل إلى عامي الثامن، وأفتح عيني على ما حولي، إلا وقد بزغ فجر عام ١٩٧٠م، وامتلأنا جميعنا بالروح الوطنية ومبايعة قائد النهضة وإحاطته بالحب والوفاء، وعشنا إنطلاقة الوعود الصادقة التي سرعان ما لمس الشعب العُماني واقعها، وها نحن اليوم نشهد واقع الوعد الذي أطلقة جلالة السلطان قابوس في يومه الأول لتوليه الحكم حين قال: سنعلم

أبناءنا ولو تحت ظل شجره، وأحسبني تعلمت معنى الوطنية من خطابات جلالة السلطان التي تعوّد أن يلقيها في إستاد الشرطة بالوطية كل عام، والتي أصبحت منهجاً وطنياً يتكرر في ذكرى الإحتفال بالعيد الوطني الذي يصادف يوم الثامن عشر من نوفمبر من كل عام.

وقلت لأصدقائي إن هذا اليوم قريب من الأمس، فالمسافة بين عام ١٩٧٠م، وعامنا هذا قصيرة، يمكن أن نختزل إنجازاتها، على الأقل في جلستنا هذه، في مجاميع الطلبة المُبتعثين إلى الخارج لتلقي التعليم العالي التي لا تزال مستمرة تحمل مشعل طلب العلم جنباً إلى جنب مع أفواج من يتلقوا التعليم في داخل عُمان اليوم في جامعة السلطان قابوس وجامعة نزوى وجامعة صحار وغيرها من الكليات المتخصصة العامة منها والخاصة، ومن ثم طفنا بحديثنا حول أستاد الشرطة وميدان الفتح اللذين كان جلالة

السلطان يحرك وجدان الشعب العُماني كلـــه مـــن منصتيهما، ويفتح أمام أبنائه وعود الحرية والإنطلاقة والعدالة الإجتماعية، لنصل بحديثنا في إختبار الأفكار المستقبلية وكيفية دعمها، وحدث توافق بيني وبـــين أصدقائي، ربما لأنهم بعد أن سمعوا محاجّاتي جـــددوا تأكيد ما بطن في ذاكرتهم مـــن أن هنـــاك الكـــثير والكثير من المعايير الفكرية والجهود البشرية والعوامل المادية التي أرادت جعل عُمان في مستوى الريـــادة وفق ثوابت الدين والجغرافيا والتاريخ، وعندما طلبت منهم التوسع في حديثنا بيّن كل واحد منـــهم لي كيف تعامل مع أسئلة الإمتحانات، وأدركت على الفور أننا قد خرجنا للتو من إمتحانـــات المرحلـــة الثانوية، وعلينا أن نعمل شيء ونتعلم كيف نستفيد ممن سبقونا، وهذا ما فعلته، فقد كنت بحاجـــة إلى رؤية مباشرة للمرحلة المقبلـــة، وعوامـــل التركيـــز والإختيار، لقد إكتشفت أن ذات الإحساس يتدفق بين أصدقائي، لأننا كنا جميعاً نشطب جانب الفشل

والاخفاق من أذهاننا بعد إجتيازنـــا الإختبـــارات بشريط أدوات النجاح التي تحققت على المســـتويين الوطني والشخصي.

وبعدما ظهرت نتائج إمتحانات الثانويـــة العامـــة وأذيعت عبر قناة إذاعة سلطنة عُمان ثم نشـــرت في اليوم التالي على صفحات جريدتي عُمان والـــوطن، أمضيت جلّ وقتي قبل ذلك بين ظهراني أســـرتي في ولاية السويق وكان لابد أن أتابع أوراق إبتعـــاثي واختيار التخصص المناسب والبلد المناسب، فقـــد كنت سابقاً قبل دخول الإمتحانات قـــد أختـــرت تخصصين هما: الطب والعلوم السياسية آملاً في الأول بشكل كبير، وعندما وضعت الامتحانات أوزارهـــا كان علي أن أتقبل التخصص الثاني وفق ما يؤهلني به المجموع الكلي لنتيجة الإمتحان، وورد اسمي بين الطلبة المبتعثين لدراسة علوم الأحياء وكان عليّ أن أقبل بالدراسة في هذا التخصص إما في دولة قطر أو

المملكة العربية السعودية، لكنني كنت قد ألفت إختياري بشقيه العلمي والأدبي، ويجب أن لا يفرض عليّ شيء لم أُكن شريكاً في إختياره، بحيث تمكنت بعدها من إقناع الأستاذ موسى بن جعفر مدير عام البعثات حينها، بقناعتي باختياري ودفاعي عنه، وقد طبع الأستاذ موسى تصحيحاته بخبرته على حماسيّ، وكانت عوامل القبول والتقبل المشتركة بيننا عامل الموافقة لي بدراسة التخصص الذي اخترته بإحدى جامعات المملكة المغربية، وهذا العامل منحني المزيد من الجهد والإبداع على مدرجات كلية الحقوق بجامعة محمد بن عبدالله بمدينة فاس المغربية.

إليكم كيف كان الإبتعاث، حوّلت ملاحظات المقابلة مع الأستاذ موسى بن جعفر إلى عمل فوري نحو إتخاذ إجراءات الإبتعاث المعتادة، ونفرت إلى استلام تذاكر السفر وأستعملت حقي في مرافقة زوجتي لي حيث أني قد تزوجت بُعيد الإمتحانات

العامة مباشرة، دعاني أحد الأصدقاء لتناول مشروباً بارداً من الكافتيريا القريب من المديرية العامة للبعثات في مدينة روي بمناسبة ابتعاثه هو أيضاً إلى المملكة المغربية، وكالعادة، دارت الأحاديث حول إجراءات الإبتعاث والقضايا الجامعية التي ترتبط بالتسجيل والتخصصات، وجرّتنا الأحاديث إلى طبيعة المغرب ومستويات وأسلوب العيش فيها، خصوصاً وأنني قد زرت المغرب عام ١٩٧٨م، أثناء مشاركتي في المخيم الكشفي العربي الذي أقيم في غابة المعمورة بضواحي مدينة الرباط، وتتلخص تلك المشاركة في أنني قد رشحت من قبل مدرسة الوارث بن كعب في ولاية السويق للمشاركة ضمن رهط الكشافة الذي يضم مجموعة تُمثل كافة مدارس مناطق السلطنة، كنت وأنا بين مجموعة أذكر منهم عوض الشنفري ومحمد الجزمي وعبدالله الجرواني، فخوراً بتمثيل عُمان في بلد عربي شقيق، كأن حينها القدر يُمهد لي دخول عالم العمل الدبلوماسي،

ويبدو أن البعض مثل "عوض ومحمد" قد كُتب لهم أن يسيروا ذات الطريق المهني الذي مشيته.

وتشعب بنا الحديث حول المجتمع المغربي ومـدن المغرب التاريخية، خصوصاً أننا سنسافر بعد لقائنـا هذا بإسبوع، وتحدثنا عن دور مؤسسات الدولـة المعنية بشؤون التعليم في الإرتقاء بالخدمة المقدمـة للطالب العُماني في الداخل وأثناء الإبتعاث، ومطالبته بضرورة الحفاظ على التقاليد العمانية الجميلة، وإزالة الشوائب التي فرضتها الحداثة والفضائيات الغربيـة، وأتفقنا على أنه من الضروري لكل طالـب أن لا يسيء إلى سمعة بلده في شيء، وأن ينقل الصـورة الحضارية المتميزة لعُمان، إبتداء من دبلوماسيتها المرنة ،المبنية على الحوار والإحترام المتبادل وعدم التدخل في شؤون الغير وإنتهاء بالرؤية المسـتقبلية الواضـحة والتخطيط السليم، وأكدنا أهمية الإستعانة بثقافتنا في

المجتمع المُبتعثين إليه وعدم تضيّع الجهد والوقت خلال سنوات الدراسة الجامعية.

وأذكر انه وأثناء الحديث حاول أحد المبتعثين "لا أذكره" ولأكثر من مرة لفت إنتباهنا أنا وزميلي، ودفعنا إلى التحدث معه، خصوصا بعد أن قال إنه مرشح للإبتعاث إلى المغرب، وإسترجعنا ما يمكن أن نقوم به نحن الطلبة في دعم التواصل بين المشرق والمغرب، كما كانت تقوم به سفن أجدادنا وقوافل إبلهم، وأظنني ذكّرت زميليّ بإجتهاد بعض الباحثين في إثبات دلائل التواصل المشرقي والمغربي، وقلت لهم أن موسى بن نصير الفاتح العظيم، والقادم أصلاً من "المشرق" دليل على هذا التواصل، شأنه في ذلك شأن الفاتحين والعلماء الذين يشتركون معه في الأصل المشرقي، ولعل زميلي الذي أنضم إلينا هو الذي أضاف أن الرحالة المغربي الأصل "إبن بطوطة" قد توقف في عُمان، وكثيرون من المغاربة قرروا

الإقامة فيها، إما في نزوى أو في مسقط، وأن نزوى كانت منطقة جذب لهجرة عدد من المغاربه الذين وجدوا فيها ما يروي عطشهم من علوم الدين والمعرفة وطيب المأوى وحسن المعشر، وقد عقّب زميلي الأول على ذلك بقوله إنهم وضعوا نزوى موضعاً روحياً، وقرنوها بمعنى الحماية الفكرية التي يجدها العُمانيون في مركزها الخاص للإباضية "بيضة الإسلام"، وسألني زميلي عن رأيّ فيما قاله، فقلت له أن دلالاته تجمع من المعاني الروحية الكثير، ومضيت قائلاً أذكر أنني سألت حول التواصل التاريخي بين عُمان و المغرب، ووجدت كثير من الإجابات لا تخلوا من التأكيد على عمق الوشائج وتعدد وسائل التواصل بين المشرق والمغرب، خصوصاً ما تشير إليه دلائل التاريخ من عشق العُمانيين في ركوب البحر وريادتهم في السفر والإستكشاف، وذكرت لزميليّ إن إبتعاثنا للمملكة المغربية، دفعني إلى التفكير في إحتمال أن نكون

إمتداد لما بدأه أولئك لكن ربما كان الأمر بالنسبة لهم أكثر صعوبة وعناء، ولعل استخدام الوسائل الحديثة للإتصال يجعلنا أكثر راحة وأسهل إندماج في المجتمع المغربي، ويبدو أن زميليّ قد أعجبهما الحديث، فأظهرا رغبة وميلاً إلى لقاء بيننا قبل موعد السفر، قلت لهم، ربما الأمر لا يستدعي ما تقترحون، فإني مضطر إلى تجميع الكثير من الحوائج والمستلزمات قبل السفر الذي أصبح قريب جداُ.

نعم السفر، هذا ما ظللت أردده في نفسي، وأنا عائد إلى منزلي في ولاية السويق من مسقط، أنساني حديث السفر مع الزملاء حديث الذكريات، واستغرقنا في شرح دلالات المهمة المقترنة بهذا السفر، وقلت لنفسي، قد يكون حديثنا هذا قربني إلى ما سأحتاجه من المستلزمات الخاصة بالسفر، وإتخذت طريقي إلى ما قد إشتريته من مستلزمات، آملا أن أفرغ من حزم أمتعتي كلها، وفي طريقي إلى

حجرتي مررت بباحة المترل التي كانت تجلس فيها والدتي، وقبل أن أدخل الغرفة، سمعتها تقول ".. ربي يوفقك ويحفظك.." أعادتني قدماي رغم إرادتي، ودون أن أشعر رجعت إلى الوراء، وعدت إلى والدتي أقبل رأسها ويدها، وشيئاً فشيئاً، نسيت الذهاب إلى الغرفة، بل نسيت ما كنت ذاهب إليه، ووجدت نفسي معلقاً بدعاء أمي وحديثها النابع من القلب رغم أنني تعودته وسمعته منها مرات، و لم أفارق مجلسها، و لم أنطق بحرف، فقد إستغرقت في عالم الأمومة والحنان الذي لا يمكن لأي كان الإستغناء عنه، لأجد الدفء والبركة والرضا، وسماع الدعاء الصادق وكان هذا هو زادي في تحقيق النجاح والسير في الطريق الساعي إليه، وآمنت بثلاث " الايمان بالله، ورضى الوالدين، والثقة بالنفس" وهي مباديء على المرء أن يتمسك بها في حياته كلها.

زمان الجامعة....

ما زال إلى الآن زملائي يتذكرون المرة الأولى التي سمعوا فيها كلمات "لاباس.. بسلامه سيدي .. فين بغيتني نهزك .. كيداير" كطلبة، ولم يكن ذلك أثناء جلوسهم على مقاعد الدراسة في عُمان، حدث ذلك عند وصولهم مطار محمد الخامس بالدار البيضاء، كانت الكلمات باللهجة المغربية وكان أول من تحدث بها معنا هم أصحاب سيارات الأجرة، يساعدهم في إفهامنا إياها حاملي الحقائب، أتذكر: كان لدي حقيبتان ومبلغ مالي يقدر بألف دولار، وهو مبلغ زودني به والدي قبل مغادرتي ولايتي متجهاً إلى مطار السيب الدولي "مطار مسقط الآن"، ونحن الطلبة أثناء المغادرة كنا قد عرفنا بأن الملحقية الثقافية في الرباط هي من ستستقبلنا وتتولى إيوائنا إلى أن يتم توزيعنا على الجامعات في مناطق المغرب

المختلفة، ومن ثم سيُدفع لنا مبالغ المنحة الشهرية التي حددها لنا حكومة سلطنة عُمان، وبالفعل وجدنا مجموعة من مسؤولي الملحقية الثقافية في إستقبالنا بالمطار وأقلّونا في حافلات إلى مدينة الرباط وأنزلونا بفندق "ظهير"، وفي اليوم التالي سألت أحد المسؤولين عن تفاصيل الدراسة والجامعة التي رشحت إليها، فقال لي: بأني سأغادر إلى مدينة فاس لأنني وقع اسمي ضمن المجموعة التي تم قبولها بجامعة محمد بن عبدالله في هذه المدينة التاريخية، شعرت بالزهو: فقلت في نفسي، كم من الجهد والمال والأفراد توفره عُمان لتسهيل إجراءات دراسة أفواج الطلبة الدارسين في الخارج؟، الآن يجب أن أتذكر، ذلك الوقت الذي أطل فيه جلالة السلطان قابوس، وسعيه الدؤوب من الوهلة الأولى لبناء الإنسان والأرض، وكانت انطلاقة عُمانية ضخمة لا ينكرها إلا جاحد، فجأة وأنا في زهوي هذا .. سمعت الرجل المسؤول يقول لي أن رحلتنا إلى مدينة

فاس قُرر لها أن تكون في اليوم التالي، بدا لي ذلــك وكأن كل رجال الملحقية الثقافية يضعون لنا خارطة تسهل لنا دراستنا.

بعد قضاء ليلتين في مدينة الرباط انطلقـت بنـا حافلتين تقل الفوج الأول مكون من سبعة وأربعين طالباً متجهةً إلى مدينة فاس قاطعة الطريق المتعـرج عبر الجبال في ثلاث ساعات ونصف تقريباً، لبثـت أسأل نفسي طوال الطريق من يدير رحلتنا هـذه؟ أعني، من هم هؤلاء الرجال؟، نعـم الموظفـون في الملحقية الثقافية هم من يقررون لنا ما هي الجامعات التي سندرس فيها، والآليات التي سنتّبعها نحن أيضا، إنها سلسلة بدأت حركتها في عُمان، وهي تشـمل مجموعة من الأشخاص يتبادلون الأدوار للتعاون في تسهيل مهمتنا، ولأنني غير مولع جـداً بالحـديث خلال الرحلة، لم أكن أركز كثيراً علـى حركـة زملائي في الحافلة، لكن حين فعلت، إكتشفت بأنها

حركة مدهشة بحد ذاها، تضم مجموعات تتشارك في التأملات وأخرى تتشارك في المرح والغناء، وهم يفعلون ذلك لأنهم يريدون تمضية الوقت حتى الوصول إلى فاس، إنهم يفعلون ذلك أيضاً من أجل الحماسة النفسية التي تعتري الإنسان عند زيارة مكان يمكن أن يكون غامض ومجهول، والأهم من ذلك كانوا يلفتون الإنتباه بقصد التميز والظهور، إن هؤلاء الزملاء هم في الواقع أصبحوا من أكثر المجموعة في فاس مرحاً وحيوية ونشاط فقد كانت تسّرهم حياة الجامعة ويعملون على المزيد في إبراز هويتهم العُمانية.

وكالعادة، في كل مراحل عمر الشباب، كان الحديث عن الفتيات الجميلات، وكان كل واحد من المجموعة يرى فتاة أحلامه البريئة وفق الشكل الذي رسمه لها في عقله وقلبه، وكم بحثنا عن فتاة أحلامنا في أوجه بنات العم والخال وبنات الجيران،

ولعل السر في زواجي المبكر، ناتج من كوني كنت أعشق صور الواقع، لا صور الخيال، التي يبحث البعض عنها في شبيهات بطلات الأفلام والمسلسلات، فإذا لم يجد شبهاً واضحاً إختلق لنفسه شبه، واستبدل بالصورة الواقعية التي يراها صوراً من صنع خياله، وينجرف في حب المثال الذي صاغه له الوهم، وفي اللحظة التي وصلنا فيها مدينة فاس التي بناها إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة، قيل سميت كذلك لأن مؤسسها ضرب الأرض بفأس إيذناً ببدء تأسيس المدينة، أما الدكتور علي فهمي خشيم فيصف ذلك تفسيراً خيالياً والواقع عنده أن "فاس" مقلوب "ساف" المحرفة عن "سيف" أو "سوف" بمعنى النهر أو الوادي في لهجة أهل البلاد وهي كذلك في العربية العدنانية، وأمام فندق "أولومبيك" وقفنا جميعنا نتابع بأعيننا المبهورة فتيات فاس الجميلات واللائي سرعان ما كّن يتحدثن معنا، فتفتحت براعم الحب عند بعضنا وتاق آخرين إلى

الحبيبة الجميلة، و لم يكن إنبهارنا نقيض براءتنا وعاداتنا العُمانية، أذكر أنني تذكرت في تلك اللحظة زوجتي ووالديّ وأخوتي، ودخلت مع الداخلين إلى الفندق وأنا أحب القدر الذي جاء بي إلى هذه المدينة الجميلة، هذه الغبطة نفسها عاودتني عندما استقر بي الأمر مع ثلاثة من الزملاء هم: محمد الحميدي، سالم الوهيبي، وعبدالله القريشي، في مترل قد إستأجرناه نحن الأربعة، وإزاء ذلك، تمسكنا بصداقتنا وأخوّتنا إلى يومنا هذا، ولكن القدر كان قد حدد لي العيش معهم سنة واحدة، حيث قد ألحقت زوجتي بي في سنتي الجامعية الثانية، وتنتهي سنوات الجامعة والسعادة تملأ جوانحنا أنا وزوجتي، والعالم وردي بأحلامنا، ونحن نربي أبناءنا هيثم الذي ولد في ١٩٨٤م، وهاشم في عام ١٩٨٦م أي قبل عام من السنة الجامعية الأخيرة.

وقد بلغ بنا التعلق بالحياة الجامعية مبلغة، فقد أصبحنا نخوض مع إخوتنا المغاربة والدارسين من الجنسيات الأخرى تجربة النجاح الجامعي، ونخوض معهم كل تجربة فشل، وما أكثر ما شهدنا وعشنا فترات إضرابات طلابية، منها ما كان سببه مطالب طلابية تتعلق بتحسين المعيشة للساكنين في الحي الجامعي، أو توفير التقنيات المتطورة في قاعات المحاضرات، ومنها ما كان تعبيراً عن مواقف قومية ترتبط بالنزاع العربي الفلسطيني وإسرائيل، كالعملية الفدائية التي قامت بها "سناء محيدلي"، وتألمنا من توقف الدراسة الجامعية لأيام طويلة بل لشهور في بعض الأحيان، فيقرر الأساتذة الذين أصبحوا شبه متوقفين عن إلقاء المحاضرات أن يمتحنوا تلامذتهم في مواعيد الإمتحانات المقررة، وكم كنت أغتنم الوقت المتأخر من الليل لقراءة كتب المواد المقررة، لكن بلا محاضرات، فقد كانت المحاضرات متوقفة، وتعلقت بفكرة النجاح والتفوق، وظللت أذاكر وأنجح إلى أن

أدمنت عشق الطلبة المغاربة في النقاش والتحليل، لا أعرف هل كنت قد أكملت سنتي الجامعية الثانية حين تعرفت على زميل من فاس أم لا؟، كل ما أذكره أنني إرتبط بهذا الزميل في الإستذكار، لماذا؟ لا أعرف، ربما كان السبب أن زميلي هذا قد سبقني في الكلية، وكان شديد الحرص على متابعة الجديد في الحرم الجامعي، أو أن حاجتي إلى معرفة منهجية الإجابة على أسئلة الإمتحانات كنوع من الفهم بمعايير النجاح.

أذكر أن مستقبلي لم يتحدد تماما في هذه السنوات، وأن حلم النجاح والتفوق لكي أكون ذا منفعة لبلدي لم يكن يفارقني، ولذلك كنت أتحاشا أجوبة أسئلة الإمتحان التي تتعارض مع المعايير المعتمدة في كل كليات الحقوق في الجامعات المغربية، كما أتخيل نفسي تلميذا جاء تاركاً بلده لأجل العلم والمعرفة، لم يكن مهما أن أتعرف على فتاة جميلة، أو

على الأقل أهمس بذلك لنفسي تبريراً لوجود زوجتي معي، وخوفي من الإنحراف عن الهدف المُبتعث من أجله، لذلك تركت لنفسي العنان في قراءة الجديد من الكتب والبحوث والدوريات، وجلست طويلاً مشدوداً إلى شاشة التلفزيون متابعاً كل جديد من أخبار العالم، وأنطلقت مع زماني الجميل، وحلقت مع أحداث النهضة العُمانية، وصادقت الإنجازات العظيمة، ورأيت فكر السلطان قابوس في كل كتاب قرأته وتذكرت وعوده الصادقة التي صارت حقيقة شامخة وهي مستمرة إلى ما لا نهاية.

أذكر شعوري بالفرحة الغامرة عندما أنهيت عامي الجامعي الأول بنجاح، فقد كنت في مقدمت من نجحوا، وهو شعور لم يكن قد حظي به من أخفق في تلك السنه، وخالط شعوري بالفرحة شعور موازٍ بالراحة، فقد رأيت إجتهاد سنة رغم صعوبات التأقلم مع أجواء إضرابات الطلبة وتوقف المحاضرات

يكلل بالنجاح الذي يفتح لي باباً كي أُفاتح والدي للسماح بإصطحاب زوجـتي إلى بلـد الدراسـة، وملأتني الآمال العريضة، وتخيلت نجاحي دليل إثبات أمام الإستاذ موسى بن جعفر مدير عام البعثات حين أصررت على اختياري التخصص أثناء إختيار البعثة، وتصورت نفسي أنهيت دراستي الجامعية، وأنني سائر على الدرب الذي كدحت للمضي فيه، ولكن بقدر ما كانت فرحتي غامرة كان إحباطي كبيراً، فلـن أسافر إلى عُمان فور ظهور النتيجـة، والسـبب في ذلك هو ضرورة إنهاء إجراءات خاصة بالسنة الثانية من الدراسة، وكان لابد لي من البحث عن مقعد في الطيران بعد إسبوعين من تعليق النتيجـة النهائيـة للإمتحانات كي أخفف شوقي لأسرتي، حصـلت على مقعد على الخطوط الملكية المغربية إلى مطـار أورلي في باريس ومن ثم الإنتقال إلى مطار شـارل ديجول للركوب في طيران الخليج عبر البحـرين إلى مسقط.

ولم أقض فترة دراستي الجامعية في سكون، فقد كنا نحن الطلبة العُمانيين مجموعة متقاربة ومتجانسة نلتقي في المساء والعطلات نتسامر في ألفة وود، لم أشعر بالغربة وقد ألفت العوائل الفاسية العريقة — كعائلة الشرايبي - وألفتني، وكانت الحياة في مدينة فاس سهلة تسير بهدوء وأنسياب جميل، وأسعار السلع والعقارات فيها رخيصة جداً، مرت سنين الدراسة وأصبحتُ من أولئك المولعين بالكتب والمكتبات، وزاد ولعي بالبحث العلمي، وظللت بين أخذ ورد بشأن عنوان بحث التخرج وقد إستقر الرأي بيني والإستاذ حماد صابر أستاذ المشكلات السياسية بالجامعة على عنوان: الحرب العراقية الإيرانية وموقف دول مجلس التعاون منها، وتقدمت ببحثي، وقابلت أساتذة الإختبارات الشفوية، واجتزت أسئلة الإختبارات الكتابية، وكانت النتيجة ناجح، وعدت إلى الشعور بالفرح الذي لازمني إلى

أن أنهيت الإجازة في الحقوق تخصص علاقات دولية، كنت واثقاً من النجاح، بل كنت متوقعاً تقدير نهائي جيد، ولكن حدث ما لم أتوقعه، إذ عندما ظهرت النتيجة وجدت نفسي ناجح بتقدير مقبول، فحمدت الله، وأسترحت بعض الشيء حين علمت أن أربعة من بين ألف طالب حصلوا فقط على تقدير جيد.

حصلتُ خلال سنتين دراسيتين على تقدير جيد، وحسب نظام الجامعة فأن هذه النتيجة كانت تتيح لي مواصلة برنامج الدراسات العليا، وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة، أخذتني قدماي إلى سيارتي الصغيرة التي كنت قد إشتريتها وأنا في السنة الجامعية الثانية بمبلغ قد وفرته من "المنحة الحكومية" المجزية، وإتجهت مباشرة إلى مترلي لنقل البشرى لأسرتي، قضيت يومي ذلك فرحا محتفلاً بنجاحي في مترلي الذي ملأته زوجتي بالمأكولات المتنوعة، فضلاً عن

الفواكه والحلويات والعصائر، وظللت أرقب يــوم العودة إلى الوطن الذي إشتقنا له كثيراً إلى أن حــل ذلك اليوم، مشرق الوجه كما لو كان يحمل كــل الفرح الذي عشته خلال سنوات دراستي الجامعية، وذهبنا أنا وزوجتي وولديّ "هيثم وهاشم" إلى مطار فاس الذي لا يبعد عن مترلنا المســتأجر إلا بعشــر دقائق تقريباً، ووصلنا إليه مبكراً، فجلســنا ننتظــر إقلاع طائرتنا إلى باريس ومنها إلى دولة الكويــت لقضاء إسبوع نقاهة من عناء الإســتذكار وجهــد الإختبارات، وتجولنا في شوارع الكويت العاصــمة والسالمية والوفرة وخيطان وفحيحيل والقضيبية، ولم أنسى أبدا لحظة وصولنا إلى دولة الكويت عنــدما استقبلنا سائق سيارة الأجرة ببشاشة وترحاب، وقد لازمنا طوال فترة بقائنا وأخذنا في جولة مدفوعــة الإجرة شملت سوق واقف وحديقــة الحيوانــات وأبراج الكويت وسوق السالمية، وفق برنامج خططنا له أثناء زيارتنا.

عدنا بعد أن قضينا أسبوعاً جميلاً في دولة الكويت إلى عُمان، وقد حشت زوجتي حقائب أمتعتنا حشواً بعد أن أشترت الهدايا والألبسة والذهب، لأنها كانت تدرك أنني وفرت.مبلغاً لابأس به من المنحة الدراسية التي كانت تسلمها لنا حكومة السلطنة بإنتظام وفي اليوم الثامن والعشرين من كل شهر دون تأخيرطوال فترة الدراسة الجامعية، حيث أن الملحقية الثقافية إلى جانب تسليمها المنح الشهرية لطلبة الرباط كانت ترسل موظفيها إلى كل من فاس ومراكش ووجدة التي تبعد عن العاصمة الرباط بنحو ثمان مائة كيلومتر لتسليم المنح للطلبة العُمانيين المنتسبين في جامعات هذه المناطق في الموعد والتاريخ نفسه، وأعددت نفسي مباشرة بعد إنتهاء الإختبارات وظهور النتيجة الجامعية للدخول في واقع الخطوة الأولى من حياتي العملية، وشيئاً فشيئا، حاولت التكيف مع عالم العمل وروتين الحضور

والإنصراف، وبدأت أتعود رحلة الذهاب والإياب من وإلى العمل بواسطة حافلة من ولاية السويق إلى مسقط والعكس، ولكني لم أنس فكـــرة مواصـــلة الدراسات العليا، حيث ظل حلم مواصلة الدراســـة باقياً في داخلي كالشمعة التي تنير عتمة إحباطـــات الحياة العملية وهمومها، هكذا وجدت نفسي أبـــدأ حياة جديدة كموظف في وزارة الخارجية، ولم يكن معي بعد منزلاً للإقامة في مسقط، ولم أكن حينـــها في حاجة إليه، كما أنني قررت الذهاب والعودة من ولاية السويق إلى مسقط في اليوم نفسه، لأنني لـــن أضطر إلى الإقامة ما دام من الممكن الذهاب والعودة يومياً بواسطة المواصلات الميسورة، الـــتي كانـــت توفرها جهة العمل للموظفين القاطنين خارج مدينة مسقط، إلى جانب شبكة الطرق السريعة الواســـعة النظيفة، وأرصفتها المزينة بالورود والرياحين والنخيل الباسقة التي تسر المارة ومستخدمي الطرق، وتجعـــل من المسافة بين مسقط وولاية السويق قريبة جداً.

زمان التعيين في الوظيفة....

أذكر أن الأسابيع المعدودة التي قضيتها في ولاية السويق بعد وصولي من المملكة المغربية، لم تخلو من إتصالات تلقيتها من ديوان شؤون الموظفين "وزارة الخدمة المدنية حالياً" تحثني على إنهاء إجراءات تعييني في إحدى الجهات الحكومية التي تم إختيارها لي: وزارة التجارة والصناعة ووزارة الإسكان ووزارة البيئة، لكن أيّن من هذه الجهات لم ترق لي، وتوجهت إلى وزارة الدفاع قسم دائرة العقود والمشاريع، ووجدت ترحيباً وقبولاً من مدير الدائرة الغير عُماني حينها، وقال لي بلغة عربية ضعيفة: شوف هذا كرسي أنت في يجلس عليه بعندين، في إشاره إلى أنني سأحل مكانه يوماً ما، كون أن أبناء عُمان النهضة هم من سيستلمون المهمة

وسيشاركون في بناء الوطن بعد أن تم تأهيلهم أكاديمياً ويحلون محل الأشقاء والأصدقاء الذين جاؤا لمساعدتنا في التنمية وأعانونا بخبراقم، وبعد حديث مطول مع مدير الدائرة إتفقنا على أن أعود في اليوم التالي وبتشجيع من الزميل والصديق فهد المعمري الذي كان أحد كوادر الدائرة العسكريين وكان حاضرا تلك المقابلة، وعندما عدت إلى ولاية السويق وطرحت فكرة الإنضمام إلى العسكرية، فاجأتني أمي أطال الله في عمرها بالرفض، وأصرت على إنضمامي إلى وحدة حكومية مدنية، وفي تلك اللحظة طرح أبي أبقاه الله فكرة الإنضمام إلى وزارة الخارجية.

إن العمل في وزارة الخارجية، غاية تنشدها كل أسرة لأبنائها، ومسمى وزارة الخارجية له وقع خاص في قلوب الناس عامة، لأن للعمل الدبلوماسي إعتباراً مميزاً يرتبط إجتماعياً بالمشتغل فيه بما يحمله

هذا الدبلوماسي من تقاليد وعادات عُمانية ولغات، والقدرة على التأقلم والقبول للآخر، وحب التطلع والمعرفة للجديد من تجارب الآخرين، وسرعة البديهة، والتمتع بقدر من اللياقة والكياسة، إلى جانب الميل إلى المرح الجاد غير المفرط والدعابة التي تترك أثراً جيداً في نفوس الغير، والمرونة في التعامل وتتبع الأحداث الداخلية والخارجية، والإنفتاح على الغير، وعدم البوح إلا بالقدر المطلوب ولا يخفي إلا القدر المطلوب، وكان للعمل في وزارة الخارجية سحر خاص عند أبي، ليس من باب أنه يعرف الصفات والمهارات الخاصة بالدبلوماسي، بل من منطلق الإعتزاز والتفاخر بي بين أهلي وأبناء عشيرتي وعند مشايخ وأعيان ولايتي خصوصاً وأنه من أقدم التجار المعروفين فيها، وبما أن الوزارات والهيئات الحكومية حينها تتنافس حول إلتحاق خريجي الجامعات بالخدمة في دوائرها، فإن إيجاد الوظيفة التي ترضيني أوترضي أبي وأمي لم تكن صعبة، بل كان

الخريج يمكنه أن يتخير بين وظيفة وأخرى وفي بعض الأحيان يتدلل في إختيار دائرة حكومية دون غيرها، وبعد أخذ ورد خضعت في النهاية لرغبة أبي، وقررت الإلتحاق بوزارة الخارجية، رغم أنها ليست رغبتي الأولى لأني كنت شغوفاً بالعمل العسكري، وربما ذلك مرده لأن العسكرية تجعل المنتسب إليها أكثر إلتزاماً وانضباطاً.

لم يكن قبولي للعمل بوزارة الخارجية بالسهولة نفسها عند الإلتحاق إلى جهات حكومية أخرى، فعندما طلبت من ديوان شؤون الموظفين تزويدي برسالة تعيين بالسلك الدبلوماسي، فوجئت أنه يتوجب عليَ أخذ القبول من حيث المبدأ أولاً من وزارة الخارجية التي سوف تزودني هي برسالة إلى ديوان شؤون الموظفين الذي سيقوم بعدها بإتخاذ إجراءات التعيين، وعلى الفور توجهت إلى وزارة الخارجية المبنى الجميل الفخم الذي حاز على جائزة

أحسن مبنى في المعمار العــربي الإســلامي عــام ١٩٨٥م، وعند البوابة أســتوقفني رجــال الأمــن وسألوني عن حاجتي فقلت: رسالة مني إلى وكيــل وزارة الخارجية للشؤون السياسية - حينها كــان صاحب السمو السيد هيثم بن طارق آل ســعيد - مفادها طلب وظيفة ومرفق بها كافة الوثائق الدراسية والثبوتية، قام شخص مختص بعدد من الإتصالات مع المختصين داخل مبنى الوزارة ثم طلب مني تســليمه الرسالة وقال لي: سوف يتم الإتصال بك، وبعــد إسبوع تقريباً تم إستدعائي وطُلب مني مقابلة وكيل وزارة الخارجية للشؤون الإدارية والمالية وكــان - حينها سعادة سيف بن حمد البطاشي - وقد فاجأني بالقول: يتوجب عليّك الحصول على رســالة مــن ديوان شؤون الموظفين أولاً!، فشرحت له خطــواتي قبل أن أدخل إلى مبنى الوزارة، فقــال لي: أفهــم، ولكن طالما أستطعت أن تدخل مبنى هذه الــوزارة فأعتقد أنك قادر أن تحصل على رسالة ديوان شؤون

الموظفين، وأعتبر أن طلبي هذا أول إختبار لك للإنضمام ضمن كوادر وزارة الخارجية.

كنت أتحاور مع أحد الأصدقاء بشأن ما آلت إليه خطوات التعيين في وزارة الخارجية، ويتشعب الحديث بيننا حول مسؤولي الإداراة الحكومية على وجه العموم، وشخص مدير عام ديوان شؤون الموظفين ومدى تقبله للحوار على وجه الخصوص، لا أذكر كيف قادتني قدماي في تلك اللحظة إلى مبنى ديوان شؤون الموظفين في مسقط، واتجهت مباشرة إلى مكتب المدير العام وطلبت من سكرتيرة المكتب مقابلة رئيسها فأجابت إنه في إجتماع، وكان لا بد أن يقودني حديثي معها إلى إيضاح حاجتي من اللقاء فطلبت منها أن تطبع رسالة لوزارة الخارجية للتعين، ولا حظت التوتر على وجه السكرتيرة من ما طلبت، فبادرت بدوري بإمتداح عملها، وإنتقدت إقتحامي على مشاغلها

وإستمراريتها في العمل، ودون تفكير طويل كررت طلبي لها، فوافقت على إعداد الرسالة وعرضها على المدير العام للتوقيع، و بعد أن طال إجتماع المدير العام ألححت عليها أن تدخل عليه وتطلب منه توقيع الرسالة، وبالفعل قامت وأنجزت ما طلبت أنا منها وسلمتني الرسالة بعد أن تم توقيعها، ومن فوري ذهبت إلى وزارة الخارجية لتسليم رسالة مدير عام ديوان شؤون الموظفين، طُلب مني الحضور في اليوم التالي صباحاً، لإستيفاء الإجراءات التي إشتملت على إمتحان شفوي "مقابلة" من لجنة مكونة من مدير الموظفين بالوزارة ودبلوماسي ذو خبرة، وكانت المقابلة في المعلومات العامة واللغة، ثم إمتحان تحريري كان سؤال في القانون البحري حول المياه الإقليمية والمياه الخالصة، تم قبولي، وعيّنت سكرتير ثان بموجب قرار وزاري صدر في ١٩٨٧/٨/١٧م.

فور أدائي للقسم أعدّت الوزارة لي دورة في تقنية المعلومات لمدة أسبوعين، وما زلت أذكر أول يـوم ذهبت فيه إلى ديوان عام الوزارة كموظف "رسمي" إذ ركبت سيارتي من أمام مترل أخـي وصـديقي وزميلي عبدالله البادي بمدينة السلطان قابوس، الذي قبلني أن أشاركه المسكن ومع الوقت إستبدلنا المترل من مدينة قابوس إلى الخوير، وتشاركنا أنـا وهـو المسكن لمدة عامين تقريباً بعدها تم إبتعاث عبـدالله إلى سفارة السلطنة بالمملكـة العربيـة السـعودية، دخلت الوزارة من البوابة الكبيرة المخصصة لدخول الموظفين والزوار وأتجهت إلى المبنى الأبيض اللـون الذي تحيطه حديقة كبيرة وجميلة يضم مكتب الوزير المسؤول عن الشؤون الخارجيـة والأمـين العـام والوكيل والدوائر السياسية والقانونيـة والتعـاون الإقتصادي والفني والإداريـة والماليـة والقنصـلية والمراسم والأمن وتقنية المعلومات، دخلت وكلـي شوق، لأن أبدأ أول يوم عمل في حياتي الجديـدة،

وعندما أجتزت المدخل الأمامي للوزارة، لم أكـــن أعرف حينها وجهتي، وجدت موظفاً من المراسم في البهو .. بادرني بالسلام.. فأومـــأت نحـــوه ..أنـــا موظف جديد، قال مرحباً بك أخــــي .. أتـــبعني، وعلمت فيما بعد، أنني سوف أباشر عملي في دائرة تقنية المعلومات، وأنتهى بي ذلك اليوم بمكتب صغير ملحق بالغرفة الرئيسية للتحكم بأجهزة الحاســـب الآلي بالوزارة، وطلب مني أن أقرأ كتاباً يُعنى بتعلم مباديء الحاسب الآلي وقوة الملاحظة، وبقيت على هذا الحال أسبوعاً كاملاً سُمح لي بعدها بالتعامل مع أجهزة الكمبيوتر، وفي نهاية الأسبوع الثاني صـــدر قرار وزاري بتعييني ضمن كادر الدائرة القانونية.

مضى الأسبوع الأول بالدائرة القانونية وأنا أتلقى تعليمات ونصائح زميل الدراسة والعمـــل ســـعود البرواني، فقد سبقني في العمل الدبلوماسي بســـنتين وأصبح يشغل مديراً لمكتب الإتفاقيـــات الإقليميـــة

ومسيراً لأعمال نائب رئيس الدائرة في الإسبوع الذي تعينت فيه بإعتبار أن الأستاذ يعقوب السعيدي نائب الرئيس في مهمة رسمية خارج السلطنة، إن ذلك الأسبوع كان تجربتي الأولى في العمل الحكومي، ومصدر خبراتي الأولى في التعامل مع واقع المهنة الدبلوماسية بعيداً عن عوالم الأحلام الوردية والأوهام الذاتية، ورغم كثرة التعليمات والنصائح التي تلقيتها من الزميل سعود، فأنني ما زلت أذكر السنوات الأربع التي قضيتها معه بالعرفان، فقد تحولت من خلال مقابلته الأولى لي من شاب حالم إلى شاب يعيش الواقع، ويصطدم كل يوم بما يزيده وعياً بحقائق الحياة العملية، ويبدو أن شخصية الأستاذ يعقوب السعيدي وخبرته في العمل الدبلوماسي، كانت بمثابة دافع دفعني إلى النجاح في المهنة الدبلوماسية، وإلى الفوز بمحبة المسؤولين بالوزارة الذين أحاطوني بالإهتمام، وجعلوني أتفانى، وأبذل الجهد في مكتب الإتفاقيات الدولية الذي

عُينت مديراً فيه، الأمر الذي جعلني أندمج في عالم الدبلوماسية من غير أن أخطط لذلك، وأمضي في إبتكار الوسائل الكفيلة بتطوير ما هو منوط بي لإجتذاب المزيد من إهتمام المسؤولين بي، وصادقني الزملاء الذين كانوا يحرصون على تطبيق مبدأ : أن الدبلوماسي يجب أن يسعى إلى إيجاد العمل ولا ينتظر العمل أن يأتيه على مكتبه، ويؤمنون بدور عملهم في تنمية عُمان، وفي الوقت نفسه، كان لابد من الإصطدام بأولئك الذين جعلوا من الوظيفة العامة مصدر رزق شهري ثابت لا أكثر، بعيداً عن معنى الجد والإجتهاد والإبداع.

ومرت الأيام وما كادت تنتهي السنة الأولى حتى أخبرني نائب رئيس الدائرة بأنني كُلفت بمهمة رسمية لتغطية إجتماعات اللجنة القانونية الدائمة بالجامعة العربية، ويبدو أن إجتهادي دفع بالمسؤولين إلى الإقتناع بقدراتي، وظللت أستعد للسفر إلى مقر

الجامعة في تونس وكانت مصادفة سعيدة أن أسافر بمعية الصديق العزيز السفير عبدالله الشنفري، وكان أول ما فعلته هو الإطلاع على أوراق الإجتماع ومعرفة خلفيات البنود المعروضة على جدول المداولات، وكانت المفاجأة السارة الأولى في المهمة هي زيارة الجمهورية التونسية لأنني لم يسبق أن زرتها، أما المفاجأة السارة الثانية فكانت أنني سوف أشغل مقعد السلطنة وهذه المرة الأولى أجد اسم عُمان مكتوب أمامي على الطاولة وأنا أمثلها في محفل دولي، ذهبت إلى مقر جامعة الدول العربية وأنا أكاد أطير من الفرح، غير بعض الرهبة التي عاودتني عندما دخلت قاعة الإجتماعات، ولكن الرهبة أختفت عندما رأيت علامات الترحيب على وجوه المشاركين الذين بادروا بالتعرف عليّ، وطلب ممثل الدولة التي تترأس إجتماعات اللجنة من المشاركين أخذ أماكنهم لبدء الإجتماع وكان وجهه متهللا مرحباً، وكانت دهشتي بإسلوب وإدارة الإجتماع،

وظللت أراقب مداخلات المشاركين وأتعرف على مواقفهم، و لم أستطع أن أجاريهم، فأنا اشارك لأول مرة في مثل هذه الإجتماعات ويتوجب عليّ الحرص والدقة والتركيز والتعلم.

وخرجت من الاجتماعات قاصداً مقر إقامتي "فندق المتره" وأنا أدعو الله في أعماقي، بأن أكون قد وفقت في مهمتي الأولى، وأتصور أنني إستوعبت الكثير من مشاركتي حول مفهوم الإجتماعات وعمليات الحوار، ووصلت إلى الفندق وبادرني موظف الإستقبال بقوله: تم تأكيد حجز رحلتكم غداً سيدي، فقلت .. بارك الله فيك، وأعطاني تذكرة السفر لأرى ساعة الإقلاع، وبعد أن أنهيت إجراءات مغادرة الفندق، وجدت موظف السفارة ينتظرني بسيارة أمام الفندق وأقلني إلى المطار، وظللت طوال رحلتي من تونس عبر باريس إلى مسقط أقرأ كتاباً كنت قد إشتريته من أحدى

المكتبات التونسية لا أذكر عنوانه، وبعد أن أكملت قراءتي للكتاب، أعدت تفكيري بأيام تونس، ودون أن أشعر هبطت الطائرة في مطار مسقط الدولي، وظللت صامتاً، فرحاً، مبتهجاً، تُناوشني إنفعالات شتى، وأثناء نزولي من المطار، وجدت من ينتظرني، وأتجهت إلى الخوير، لأعود صباح اليوم التالي إلى ديوان عام الوزارة، لأكمل مشوار العمل في مكتب الإتفاقيات الدولية الذي عملت فيه أربع سنوات، وشاركت خلالها في العديد من الإجتماعات والمؤتمرات، وأعددت الكثير من البحوث والدراسات، وحررت عدد لابأس به من وثائق إنضمام السلطنة إلى إتفاقيات ومنظمات دولية مختلفة، وشاركت في مفاوضات إقليمية ودولية، كل ذلك وأنا أعيش زماني الجميل زمان السلطان قابوس الذي تحققت كل الأحلام على يديه.

زمان السفارة في بروناي دار السلام....

وجدت خلال السنوات الأربع بديوان عام الوزارة أن حركة تنقلات الدبلوماسيين من وإلى سفارات السلطنة المعتمدة في الدول الشقيقة والصديقة، عنصراً مهماً وساحراً في العمل الدبلوماسي، فرحت أستكشف لأعرف من هم المنقولين لعام ١٩٩١م، وفي النهاية، وجدت طريقي يقودني أمام مكتب الموظفين، التقيت صدفة أحد الأصدقاء وسألته من أين جئت؟، أجاب من مكتب مدير الموظفين، وأخبرني أن قرار التنقلات قد صدر وأن اسمي بين المنقولين لهذا العام، بعد أن أنهيت الحديث مع صديقي هذا، ذهبت إلى مكتبي في إنتظار حصولي

على نسخة القرار الذي نص على أن الإلتحاق بالبعثات يبدأ إعتباراً من شهر أغسطس، ويحدد القرار فترة النقل عادة مراعاة لظروف أبناء الدبلوماسيين وأسرهم وتمكينهم من إنهاء العام الدراسي والإلتحاق بالمدارس في الدولة المنقول إليها الدبلوماسي، وجدت نفسي في خضم الاستعدادات للالتحاق ببعثة السلطنة في بندر سري بيجوان عاصمة بروناي دار السلام، هذه السلطنة الصغيرة الواقعة في جنوب شرق أسيا، تتقاسم جزيرة بورنيو مع كل من ماليزيا وأندونيسيا والفلبين، وقد بدأت بُعيد صدور القرار بإنهاء بعض إجراءات السفر، وتابعت أوراق دراسة أبنائي " هيثم، وهاشم، وهود " وبعد ذلك استلمت المخصصات التي عادة ما تسبق النقل لتحسين وضع الدبلوماسي وكانت تشمل مبلغ يعادل راتب شهرين للأعزب وثلاثة أشهر للمتزوج ، وتذاكر السفر لي ولأفراد عائلتي على الدرجة الأولى لكوني حصلت ترقية إلى سكرتير

أول في نفس الفترة، إضافة إلى تذكرة شحن ١٥٠ كيلو مصحوب، وشحن حاوية ٢٠ قدم، ولحسن الحظ، أنني عُينت قائم بالأعمال بالإنابة، أي أنني وجدت نفسي أتحمل مسؤولية إدارة بعثة في بلد ترتبط سلطنة عُمان معه بعلاقة أخوية خاصة.

لا بد للدبلوماسي عندما يتحرك إلى إحدى بعثات بلاده في الخارج، أن يكون لديه مقدرة واستعداد كافيين للتأقلم في البيئة الإجتماعية المنقول إليها، فبهذه المقدرة والاستعداد المادي والمعنوي، لن تكون هناك أمامه منغصات، أو عراقيل، أو إرتباك، وكون أن بندر سيري بيجاوان، العاصمة القابعة وسط غابات جزيرة بورنيو الكثيفة والمتأثرة بطقس معتدل على طول العام، أصبحت هي المحطة الدبلوماسية الأولى لي، فإن المصادرالمعرفية المسبقة عن سلطنة بروناي دار السلام كانت عامل رغبة مهم لي في قبول النقل، لأن مثل هذه الخطوة توفر العديد من

المزايا الإيجابية، لكن في الوقت نفسه يضطر الدبلوماسي بأن يفكر ملياً، قبل أن يسعى بجهد للحصول على نقل إلى إحدى السفارات في الخارج، في مستوى المعيشة في تلك البلد، وفيما إذا كان يمكنه من أن يزيد من إدخاره المالي أم لا؟، وما إذا كانت الظروف السياسية والإجتماعية تزيد من إبداعه وتمنحه فرصة للبروز في العمل أم لا؟، وجدت بندر سري بيجوان مدينة صغيرة خضراء تزحف فيها التنمية الحديثة زحفاً، يغلب على أهلها الجنس المسلم الملاوي يحرصون على إقامة فروض الصلاة في المسجد، وأول ما لفت نظري مسجد السلطان حسن البلقية الذي كان في طور التشييد، وكان ولايزال تحفة فنية ومعلم من معالم بروناي دار السلام.

ولا حظت أن باقي السكان هم من أصل صيني وآخرين من أصول هندية يتواجدون في المؤسسات

الحكومية ويسيطرون على مفاصل التجارة، وعلى المهن الخدمية والفنية، من الممتع أن تتحدث مع الملاويين فتكتشف أنه يمكن أن تستفيد من ثقافة شرق آسيا، وهي ثقافة متعددة الأنسجة عربية إسلامية وملايوية وهندوسية وصينية بوذية ولا دينية، إنني أتحدث عن بروناي في أوائل التسعينيات، في ذلك الوقت كان سلطان بروناي قد زار سلطنة عُمان وأعجب كثيراً بالتنمية ومنهجية تنفيذها، كنت في حفل إستقبال بقصر سلطان بروناي الكبير والجميل، وقد أتاحت الفرصة لي التحدث إلى السلطان حسن البلقية الذي بادر بسؤالي عن أخيه جلالة السلطان قابوس بن سعيد، في ذلك الوقت، كنت قد شعرت أن السلطان حسن البلقية قد خصني بفرصة التحدث إليه، وقد لمست ذلك من حديثه والبوح عن خصوصية علاقته بشخص جلالة السلطان قابوس وإعجابه بنهضة عُمان وإظهار رغبته في نقل التجربة العُمانية إلى بلده وقال: سلطنة

عُمان جميلة وشوارعها واسعة ونظيفة، ولأن بروناي بلد حديث الاستقلال حيث نالته عام ١٩٨٤م من بريطانيا العُظمى، فإنها كانت قد فتحت سوقها في وجه الشركات العالمية والمستثمرين، فقد بدأت شركة جلفار العُمانية بإنشاء المساكن والمجمعات والمُركّبات الرياضية والمعسكرات، واستطاعت من إنجاز كل ما أسند إليها بأكمل وجه وقد نالت ثقة وإستحسان السلطات البروناوية.

من الأخطاء التي يرتكبها العديد من الدبلوماسيون في بداية عملهم الخلط بين فرض مفاهيم الثقافة التي ينتمي إليها وفهم ثقافة مجتمع الدولة المعتمد فيها، وعندما لا يجد هؤلاء الدبلوماسيين المقدرة في مواءمة الثقافتين، يسيطر عليهم العند وعدم التركيز في فهم الأمور أو تحليلها، أنا لا أعرف من عليه أن يؤثر على من، لكنني أعرف أنه ومنذ الوهلة الأولى لعملي الدبلوماسي، أدركت أن عليّ وعلى باقي

الدبلوماسيين العُمانيين الإسراع بالقدر المتسارع للنهضة العُمانية في تأكيد السياسة العُمانية المرنة، وإظهار الشخصية العُمانية المتميزة بثقافة الحوار وقبول الرأي الآخر، وإبراز أسس وقواعد النهضة العمانية المبنية على نهج وفكر جلالة السلطان قابوس، ويرجع ذلك إلى أن جلالة السلطان قابوس أعطى دفعاً ضخماً لدور سلطنة عُمان داخلياً وإقليمياً وعالمياً، إن الدبلوماسية العُمانية اليوم مختلفة عن ما كانت عليه قبل عام ١٩٧٠م، فهي تعني أخذ المبادرة والتحرك بعقلانية وأن لا نحمل القضايا أكثر مما تحتمل، ونقل الواقع بشفافية وأمانة، وهنا نصل إلى السمة العُمانية الحضارية الحقيقية والإنفتاح العالمي، فكلما جعلت عُمان نفسها أكثر جاذبية كقاعدة للسياسة المرنة، يجب على الدبلوماسي العُماني أن يجعل نفسه تجسيداً لهذه السياسة، فجميعنا ينظر إلى ما يجري في العالم ونقول لأنفسنا "الحمدلله" أن منّ علينا بقائد يحمل من الخصال

الحميدة السامية الكثير، وهو من وُصف عالمياً بالحكيم ورجل السلام والعدالة الإنسانية، وقد حفز جلالته عند العُمانيين روح التنافس في حبه المتجذر في الأرض العُمانية، وبذل الكثير من الجهد من أجل أن يرى أي منا يستطيع إعطاء أفضل المساهمات الوطنية، والإبداع العلمي والفكري، وتشجيع نقل ثقافة النهضة العُمانية إلى شواطيء العالم المختلف.

وما أن بدأتُ أتأقلم على الحياة في بروناي دار السلام، حتى ازددت فخراً واعتدادا بأنني عُماني، لما لعُمان من تاريخ حضاري تليد، فقد وجدت ما يُشير إلى الإمتداد العُماني في جنوب شرق آسيا منذ القرون الأولى للإسلام في متحف العاصمة البروناوية، ولما للقيم والتقاليد العُمانية العربية الإسلامية من جذور في أرض الملايو، وشعرت بتفرد الشخصية العُمانية في زماني الجميل، ومقدرة العُماني وكفاءته التي مكنته من طبع الكياسة والإحترام عند

الآخرين، وتقديم جلالة السلطان قابوس كما يجب أن يقدم به كمتمكن في إدارة دفة الحكم في سلطنة عُمان، واليوم وأنا أكتب هذه الذكريات، بعد مرور أربعين عاماً على عمر النهضة العُمانية، أجد إشراقة منقطعة النظير على وجه العُمانيين وإنجازات يتحدث عنها البعيد قبل القريب، وتنظيم مثـالي في حيـاة العُماني والمقيم، وتخطيط وخطط يشيد بها أصحاب الخبرة والمختصين، ووصلت إلى قناعة أن شـعوراً سائد لدى كل من يعرف عُمان، أنه على الرغم من أن سلطنة عُمان انفتحت على ثقافات الآخـرين، كانت في المقابل تحمي القيم والتقاليد العُمانية مـن أي تشويه أو تشويش، وحققت بـذلك إنطلاقـة متفردة تركز أكثر بكثير عن غيرها على كيفية جعل الشباب العُماني متشبثاً بثقافته وهويتـه العُمانيـة، متفوقاً في الرياضيات، والعلوم، ومهارات الحاسوب المطلوبة للنجاح والتعامل مع العالم، وكيفيـة بنـاء البنية الأساسية والاتصالات التي تسـمح للشـعب

العُماني الإتصال والتشغيل بشكل أسرع وأسهل من الآخرين، وكيفية إبتكار الحوافز التي تجذب المستثمرين العالميين.

ولفهم الجوار البروناي، زرت الجزر الماليزية التي تشترك بالحدود مع بروناي، بمعية إبن عمي علي، وزوجته شقيقتي فاطمه، واللذين كانا لا يزالان في أيامهما الأولى من الزواج، وجاء بعدهما لزيارتي أخي محمود وشقيقتي ماجدة، وأعقبهما بالزيارة بعد ذلك والدي ووالدتي، التي لم تكن ميالة للتتره والإنتقال من مكان إلى آخر، فقد جاءت إلى بروناي بهدف الإطمئنان عليّ وعلى أسرتي الصغيرة، وكان خياري الوحيد هو الجلوس معها ووالدي أطول وقت ممكن وتبادل الحديث وتناول القهوة والخروج بهم بالسيارة في وسط المدينة وعلى ضفاف النهر، وكانت الوالدة تحب إقتناء الأواني فكان إحدى مشترياهما الأولى في بروناي مجموعة من

الأواني الصينية الخزفية وقطع أخرى من الصناعات الحديثة بالوان جميلة، خرجنا مرة للأكل خارج البيت في مطعم للمأكولات البحرية، وحاولت جاهداً أن أجعل أمي تأكل شيء من المأكولات التي إخترناها أنا وأبي فرفضت فهي من محبي أكل البيت وتشترط الإشراف على طهي الأكل الذي ستشاركنا أكله، لكنها تجولت في كل أنحاء بروناي، وتعرفت على الأحياء المائية "كامبونج أير" والشواطئ والغابات المختلفة، وقد سألتني هل يشربوا ماء النهر؟، قلت لا يا أمي، قالت أحسن لأنه مليء بالمخلفات، ورفضت أن تركب معي أنا وأبي في زورق طفنا به مسافة بعيدة على طول النهر، ولازالت تروي رحلتها إلى بروناي وتتذكرها بين فترة وأخرى، والأهم أنها تحتفظ إلى اليوم بكل الأواني التي أشترتها، وبما أن الوالد أراد أن ينهي زيارته بأكل ما يستطيع من المأكولات البحرية، كنا نذهب أنا وهو إلى سوق الأسماك لشراء ما يعجبه

من أسماك وقواقع ومحار وسرطانات البحر، وطلبت منه أن لا يكثر من الروبيان والحبار، فقال لي لماذا؟، قلت إن هذه الأنواع ترفع من الكلويسترول، قال ببساطة صحتي جيدة والحمدلله وفي الحركة بركة، فالوالد أطال الله في عمره كثير المشي والحركة وغالباً ما يقطع المسافة من البيت إلى السوق مشياً على الأقدام.

لا عجب إذا أن يستغل الوالد والوالدة أيام زيارتهما لبروناي في معرفة الكثير عن المجتمع الملاوي والإستمتاع بأجواء الطقس الممطر ورؤية خضرة الغابات الإستوائية، أما أنا فبالإضافة إلى حرصي على راحة والديّ كان عليّ المشاركة وبشكل يومي في الفعاليات البروناوية والتي غالباً ما يكون سلطان بروناي هو الذي يرعاها، إما لوضع حجر أساس لمشروع ما أو إستقبال لأحد رؤساء الدول، وبالإستفادة من الأجواء الدبلوماسية الغير مزدحمة في

بروناي، فقد كانت أربعة عشرة بعثة معتمدة فقط، وكانت عُمان الدولة العربية الوحيدة، جعلت من عملي الدبلوماسي أكثر فعالية ونشاطا، بحيث حرصت على لقاء سلطان بروناي والتحدث معه في كل مناسبة من هذه المناسبات، وهذا ما يغفل عنه العديد من الدبلوماسيين، عندما تسنح لهم فرصة لقاء رئيس الدولة المعتمدين فيها، فهم لا يبادرون وتنقصهم الجرأة في مثل هذه المواقف، ومن الأسباب الرئيسية في نجاح الدبلوماسي هي إستغلال المواقف والأحداث في نقل الرؤى والأفكار التي من شأنها رفع مستوى العلاقات بين بلده والبلد المعتمد فيها، وبمرور الوقت، جعلت من المعايير الدبلوماسية في العمل أكثر بروزاً وعامل حركة في تنمية العلاقات بين عُمان وبروناي.

لكن الحياة الدبلوماسية مليئة بالمواقف، كما أن فرص الفشل التي تعرقل عمل الدبلوماسي أو تبطئه

ليست معدومة، بعبارة أخرى، إذا أراد الدبلوماسي النجاح عليه أن يتعامل مع الموقف وفق المعطيات ويربطها بعوامل الموضوع الذي يطرحه، ثمة موقف تعرضت له، فقد سبق لي أن إقترحت على المعنيين في عُمان فكرة مشاركة عُمانية في إحتفالات بروناي دار السلام باليوبيل الفضي، وقبل الإحتفالات بإسبوعين تقريباً تلقيت ما يفيد أن جلالة السلطان قابوس بن سعيد، أمر بإرسال فرقة موسيقى الحرس السلطاني العُماني للمشاركة، مكونة من مئة وثمانين فرداً، زرت مقر وزير الشؤون الدينية بيهن محمد زين، المشرف على إحتفالات عيد اليوبيل الفضي البروناوي، وقد أخذني مضيفي إلى مكتبه وطرحت فكرة مشاركة سلطنة عُمان في الإحتفالات البروناوية، وكان رد الوزير الرفض، وبرر رفضه أن جدول الإحتفالات قد أُعتمد من قبل جلالة سلطان بروناي وقد أقتصرت المشاركة في هذه الإحتفالات على دول الآسيان فقط، فتولد إحباط لديّ في تلك

اللحظة تماماً، وذهبت الأفكار بيّ إلى عُمان وماذا سيقول المعنيون عن أدائي في عملي؟، فستخرجت كل معايير العمل الدبلوماسي واللياقة والكياسة قصد إقناع الوزير البروناوي، وما كان مني إلا أن أقول: معالي الوزير إن الموضوع الذي طرحته لا شأن لي ولك فيه!، إنها مشاركة أخ وهو جلالة السلطان قابوس في إحتفالات أخيه جلالة السلطان حسن البلقية، وأطلب من معاليك أن تعرض هدية جلالة السلطان قابوس على أخية جلالة السلطان حسن البلقية وله هو وحده أن يرفض أو يرحب!، لذلك ما أن أنهيت حديثي مع الوزير البروناوي حتى رفت الموافقة على محياه ورحب بفكرة عرض مشاركة سلطنة عُمان على سلطان بروناي، ولم تنقضي إلا ساعات على مغادرتي مكتب معالي بيهن محمد زين حتى تلقيت إتصالاً هاتفياً منه يطلب مني العودة إلى مكتبه، وبمجرد دخولي عليه بشرني بترحيب سلطان

بروناي بمشاركة فرقة موسيقى الحـــرس الســـلطاني العماني في إحتفالات بروناي باليوبيل الفضي.

إن قدرة الدبلوماسي على إبتكار الحلول وإقنـــاع من يحاورهم وفق مقاييس العمل الدبلوماسي تجعله بارزا في محيط المجتمع المعتمد لديه، ودبلوماسياً مهماً تعتمد عليه بلده، إننا كعمانيين نحب بلدنا وسلطاننا، لأننا تربينا على هذا الحب مـــن الأرض والقيـــادة، وسلمنا الجيل الجديد كل أنواع التميز والخصوصية العمانية التي رسخها جلالة السلطان قابوس، المبنيـــة على ما ورثناهـــا مـــن تاريخنـــا التليـــد، لكننـــا كدبلوماسيين عُمانيين، حبنا لعُمان وللقائد تتخللـــه مشاعر مختلفة، لأن المهنة الدبلوماسية تعرضـــنا إلى ضغوط متزايدة لإبراز هذا الحـــب أمـــام الآخـــر، وخفض نسبة المكاسب والمنافع الشخصية لصـــالح المنافع والمكاسب الوطنية، وهكذا يصبح الدبلوماسي الأكثر بروزاً وإثارة في تقديم الوجه المشرق لبلاده،

فما من أحد أكفأ مـــن الدبلوماســـي في تحســـين العلاقات وتبادل المصالح الإقتصادية والثقافية بـــين بلده والبلد المعتمد لديها، ولا يجسد أحد التوتر في العلاقة بين دولتين أكثر مما يجســـده الدبلوماســـي، فطبيعة العلاقة بين دولتين بإيجاها وسلبها، لا بد أنها ذات صلة بأسلوب عمل الدبلوماسي وطريقة تعامله مع محفزات وعوامل تلك العلاقة، سواء من حيـــث علاقاته بالمسؤوليين أو تأقلمه في مجتمع الدولة المعتمد لديها.

زمان الدائرة الأسيوية....

كنت أتحاور وزوجتي بشأن مخطط مترلنا الـــذي نبوي تشييده في المواح الجنوبية بولاية السيب، بعـــد إنتهاء فترة عملي ببعثة السلطنة في برونـــاي، وفي البحث عن أكفأ مهندسي الإنشـــاءات، راكمـــت زوجتي تصورات على مر السنوات الـــثلاث الـــتي قضيناها في بندر سري بيجوان في شكل وملامـــح المترل الذي تريده، ألحقت بتصوراتي عدة أفكار بدأنا في التعامل معها حتى وإن كان تنفيذها سيسبب لنا أعباء مالية إضافية، لكـــن دور هـــذه التصـــورات والأفكار كان إحدى الأساسيات التي تم بها تنفيـــذ خارطة مترل الأسرة التي أصبحت مكونة مـــن أب وأم وثلاثة أبناء وإبنة واحدة "هلايل"، وقد أحسنت التصرف حين قررت القيام بطلب إقتراض من بنك

الإسكان العُماني لبناء مشروع المترل من الوهلة الأولى عند عودتي إلى ديوان عام وزارة الخارجية عام ١٩٩٤م، العام الذي رُزقت فيه مولود أنثى "هلايل"، وسرعان ما أدركت أنني إذا إستطعت توفير المال من خلال الحرص على خفض المصروفات الشهرية، والمحافظة على مستوى معيشتي بمعرفة المزيد من المعايير الضرورية، فإنه بوسعي التغلب على العقبات والضغوط التي ستترتب جراء إلتزامي بعقد مقاولة بناء المترل، حيث لم يكن أمامي خيار آخر، فالمصاريف الزائدة التي تكبدها أثناء وجودي في بروناي دارالسلام نتيجة غلاء المعيشة فيها ومتطلبات العيش كدبلوماسي لم تمكني من الإدخار.

لقد ثمن المسؤولين إجتهادي وإقتنعوا بأن المجتمع البروناوي قد فتح لي الطريق للتعرف أكثر على شعوب شرق آسيا عامة، فعندما عدت إلى ديوان عام وزارة الخارجية، وطبقاً لآلية توزيع العائدون من

البعثات في الخارج عُينت في الدائرة الأسيوية، وحصلت على مكتب الآسيان وصرت مديراً عليه، وكانت فرصة لإستمرارية مد جسور التواصل المعرفي بيني وبين دول تجمع دول الآسيان، وساعد ذلك على قيامي ببحوث ودراسات في جوانب السياسة والتجارة للإقليم، ويعود إلى الدائرة الآسيوية الفضل على نحو ما في إطلاق تحديث العمل الدبلوماسي لديّ، حيث أدركت مقدار النقص عندي وأسرعت للحاق بمن سبقني، وقد أدركت بالفعل، وفي العديد من مجالات العلاقات بين الدول، وجوب تعلم الدبلوماسي الدرس ما أمكنه أن يتعلمه من الأمم والشعوب المختلفة، وأن يمضي في إيجاد الحلول للتغلب على لعبة السياسة الدولية وحرفنة التجارة العالمية، ومن أكثر الأمور إثارة أثناء وجودي بالدائرة الآسيوية إكتشافي لمختلف الأشياء التي تحدث في شرق آسيا – السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية – وليس هناك أكثر إثارة للإهتمام من

الكشف عن تجربة نمور آسيا، فقد تبين لي أن تجمع دول جنوب شرق آسيا أصبح - فيما تجمعات إقليمية أخرى غافلة - قوة إقتصادية ضخمة، وإستحدث هذا الوضع فرصة نمو كبيرة لدول التجمع.

عند مباشرتي العمل بالدائرة الآسيوية، إلتقيت إثنان من زملاء الدائرة القانونية، هما السفير حمد التوبي والمستشار أحمد بن محفوظ، الأول يشغل رئيس للدائرة والثاني نائباً له، ولحسن الحظ أن العمل الدبلوماسي لا يشكل عدم تجانس بين الدوائر المختلفة، لذلك لم يقلقني تكويني القانوني بل كان هذا التكوين عاملاً مساعداً لي يفتقده الكثيرين، فالتنويع في الأعمال، بمهارات عديدة، هو ما يجعل الدبلوماسي العُماني عامل مهم في تفعيل العلاقات بين سلطنة عُمان والدول الأخرى، فإذا كان يوجد لديه نطاق عريض من التكوين المعرفي أو الإتصالات

المبرمجة، يكون لدى محيط العمل الذي هو فيه فرصة الوصول إلى المعلومات الدقيقة الكاملة، إنها معادلة، تختلف عن الزمن الذي سبق زماني الجميل، لقد كانت الدائرة الآسيوية أفضل فرص وصولي إلى المعلومة والتعامل معها، وذلك بالتأكيد هو هدف الدبلوماسي عموماً، بأن يجعل كل معارفه متوفرة كي يتمكن من إستخدامها وموأءمتها مع المعارف الجديدة، ليس هناك تمييز في إستخدام الوثائق والتعامل معها من قبل الدبلوماسيين، إلا إذا كان الدبلوماسي لم يحسن إستعمال الأدوات المتاحة له أو لا يستطيع تطوير قدراته، كيف يتلاءم الدبلوماسي مع محيط العمل؟، الإجابة هي إنني أدعو ذلك "قُطر الدائرة" ويتعلق الأمر بالقدرة على بناء سلسلة عمل خاصة بكادر هذه الوحدة وتلك، وتدور هذه السلسلة حول الرقابة الذاتية والتعاون الجماعي دون عناء أو إرباك، فجلب المعلومة هو البحث عن المعرفة، ولا يتعلق الأمر هنا بالأشخاص ذو الآراء

المتشابهة بل بالمقدرة والموسوعة المعرفية، ولعل تركيبة الكادر الوظيفي بالدائرة الآسيوية هي التي كشفت مقدار الجوع المعرفي الذي دفعني للبحث عن الشكل المثالي من التعاون ومنهجية العمل.

كانت الدائرة الآسيوية بداية لرحلة ست سنوات لا أنساها، فقد أصبح من عادة رئيس الدائرة السفير حمد التوبي، في كل يوم بعد ذلك يسألني عن أصعب الآراء الممكنة، وكان عليّ أن أكون ملماً بكثير من جوانب عمل الدائرة، والإطلاع على أمهات الكتب والمراجع، والتواصل المستمر مع الأحداث في إقليم شرق آسيا ودوله، كي أكون مستعداً للرد على أي إستفسارات يتم توجيهها والتي أخذت تتكرر كل صباح، وقد مضت فترة وجودي بالدائرة، وكنت قد أعددت الكثير من البحوث والدراسات، وإستطعت مجاوزة ما يكلفني به السفير حمد التوبي وكسبت ثقته حتى أنه كان يصفني بالقانوني المحنط،

في إشارة منه إلى أن أمكانياتي القانونية غير مُستغلة، خصوصاً وأنه يعرفني كقانوني عندما كان رئيساً للدائرة القانونية، وخلال فترتي بالدائرة الآسيوية لم تكن الحياة العملية فيها كلها سلسة وميسرة، فقد تمالكت نفسي في كثير من المواقف وذلك حرصاً على التعاون الذي كنت أنشده مع رؤسائي وبيني وبين الزملاء، وبالطبع لم يفتني أن أسجل في ذاكرتي مفردات هذه الأيام على مستوى الحياة العامة، ولم أكتم فضولي في مراقبة عجلة النهضة العُمانية المتسارعة ورصد الإنجازات الجبارة التي تحققت، ولا أزال أذكر – على سبيل المثال – التحولات الجذرية في منطقة الموالح التي أنشأت مترلي فيها، من خلال ما حفظته من معالم هذه المنطقة وأنا أبني مترلي عام ١٩٩٥م، وقد أدركت من ما هي عليه اليوم – وكيف كانت – إنها علامة من علامات عشق الشعب العُماني لنهج البناء والتنمية الذي رسمه جلالة السلطان قابوس، وهو العشق الذي نورثه لأبناءنا،

نحن الذين عايشنا بزوغ فجر النهضة، وتعلمنا من فكر جلالة السلطان كيفية شحذ الهمم والبناء، وكان من الطبيعي أثناء فترة عملي بالدائرة الآسيوية أن أبحث عن ما يمايزني، ويستجيب إلى طموحي العلمي، وعندما شعرت أن إندفاعة الشباب بدأت تخبو قليلاً، كان عليّ التفكير في الإنتقال من ديوان عام وزارة الخارجية إلى بعثة عُمانية في إحدى الدول التي تمكنني من إكمال دراسة الماجستير، وكنت حينها قد أكملت عامي الخامس بالدائرة الآسيوية، وسرعان ماعرفت، أن لجنة السلكين - وهي لجنة تبحث كل ما يتعلق بالموظفين - ستجتمع لمناقشة حركة التنقلات من البعثات وإليها، وقد سعيت إلى الحصول على إبتعاث لإكمال دراستي في المملكة المتحدة وأصطدم طلبي هذا بعدم توفر المخصصات المالية، فمضيت في الإلحاح على المسؤولين بأن يكون نقلي القادم إلى بعثة السلطنة في الرباط بالمملكة المغربية ليتسنى لي مواءمة عملي مع إكمال الدراسة،

وبالفعل أتت الظروف كما أشتهي، وبعد أن قضيت مدة ست سنوات في الدائرة الأسيوية صدر قرار بنقلي إلى سفارة السلطنة بالرباط وعُينت قائماً بالأعمال.

زمان السفارة في الرباط.....

أدركت بعد قرار نقلي إلى الرباط أن أعباء جديدة ستضاف كل يوم إلى أعباء العمل الدبلوماسي، وأن حياتي الأسرية الحالية، التي كانت تميل إلى متابعة شؤون البيت والأولاد، لن أستطيع التكيف بها مع هذه الأعباء، لذا المطلوب مني تهيئة ظروف حياة خاصة إعتباراً من عام ٢٠٠٠م وما بعده، ظروف تُصنف معايير معينة لما هو آت، على أساس الربط بين متطلبات الأسرة وتلك المرتبطة بإكمال دراسة الماجستير، وعلى إفتراض أن إرتباط هذه الظروف بمستقبل معين، بحيث يجعل القادم أكثر أهمية ورُقي، أما العامل الرئيسي الذي مكنني من الإستعداد لهذا المشوار الجديد يكمن في قدرتي على دمج متطلبات حياتي الأسرية بطموحي العلمي والمعرفي، الأمر الذي حدد لي بوضوح العوامل الأكثر صلة بمستقبلي

المهني، فمن الأفضل لي كدبلوماسي أو أي شخص آخر في هذا العالم أن يحسن ما يقوم به، فنحن لا نوضب أغراضنا وننتقل إلى البلد التالي بسهولة، في عالم تتقاطع فيه المثالية القانونية وأخلاقيات العمل، وبعد بضعة أشهر من وصولي إلى الرباط بدأتُ اتخاذ الخطوات نحو إجراءات التسجيل في جامعة محمد الخامس بأكدال، لكن الإمتياز الحقيقي الذي منحتني إياه الظروف هو أن جل ساعات الدراسة كانت وقت المساء، إنني الآن في المملكة المغربية، البلد المدهش، بقرآه وسواحله وجباله المكسوة بالثلوج وغابات الصنوبر وحقول الزيتون، وما أن وصلت وركبت سيارة السفارة التي كانت في إنتظاري بمطار محمد الخامس بالدار البيضاء، حتى تذكرت اليوم الأول الذي أتيت فيه إلى المغرب وأنا طالب وها أنا اليوم فيها دبلوماسي عُماني، يحمل السلام كهدف لبلاده ومبدأ من المباديء التي توجه سياستها الداخلية والخارجية، فمنذ البداية نحن العُمانيين

تشبعنا بفكر السلطان قابوس القائم على أن الإزدهار المنشود في عُمان ليس له أن يتحقق إلا في إطار سلام وإستقرار دائمين، وكلما فكرت بأيامي وأنا طالب إزدادت رغبتي في مواصلة الدراسة والعيش في أجواء الحرم الجامعي وقاعات الدراسة، شريطة أن أجد الدعم والمساعدة من رئيس البعثة وكان حينها السفير محمود آل رحمة، أعرف أن رئيس البعثة ليس لديه أي معرفة مسبقة بي، وهذا ما جعلني أذهب مباشرة إلى السفارة للإلتقاء به والتعرف عليه، فطلبت من الموظف الذي إستقبلني أن يأخذني مباشرة إلى مبنى السفارة الذي يقع في زنقة حمزة بإكدال بالرباط.

كيف سيستقبلني السفير محمود وكيف سيبدو التعاون بيننا حين تأخذ كل الظروف العملية والعلمية أشكالها على أرض الواقع؟ هكذا كنت أخاطب أفكاري، دعني أعطي السفير نبذة عن

نفسي هكذا عزمت أن أجعل مفتاح اللقاء، سيما وأن الصورة قد كانت عندي أن السفير محمود آل رحمة، شديد وصعب المعاملة يمارس إسلوبه التربوي، فقد سبق له أن عمل مدرساً في بداية حياته، كنت قد بعثت برسالة مجاملة - للسفير محمود - قبل أن أغادر ديوان عام وزارة الخارجية، هنأتُ نفسي فيها بالعمل معه وأخبرته عن موعد وصولي ودعوت الله أن يوفقنا معاً وأن أكون عند حسن الظن، كانت هذه الرسالة هي الأسلوب المناسب الذي يتوجب على الدبلوماسي الناجح أن يقوم به قُبيل مغادرته إلى البعثة المنقول إليها، بقصد إزالة العوائق النفسية وتوضيح الصورة الذاتية لرئيسه المباشر، قلت في نفسي وأنا أدخل مكتب السفير، لا يبدو عنيفاً مثل ما قيل عنه، لذلك كانت لدي الشجاعة أن أبدأ الحديث وأجري تقيماً ذهنياً عنه بينما كنت أجلس أمامه، وأظهرت كل ما لديّ من لياقة وإحترام، وتكونت صورة لديّ بأن السفير محمود لم يكن

يحمل على الإطلاق تلك الصفات التي قيلت عنه، ولم يكن مجهم الوجه أو القاسي عند لقائي به، فقلت له: سعادة السفير يشرفني أن أستفيد من خبرتكم الطويلة وأرجو أن أكون عنصراً مساعداً إن شاء الله، فأمتدح السفير شخصي ورحب بقدومي، وقد أصبح ولازال إلى اليوم - وهو العضو المكرم بمجلس الدولة - زميلاً وصديقاً عزيزاً أستفدت منه وكان من السفراء الذين يحسنون الحوار ويتقبلون الرأي الآخر.

ولا عجب أن يكون السفير محمود هو أحد العوامل المساعدة والمساندة في سنوات دراستي العليا، فقد حمل إتجاهي صفة الأخ والزميل، وهو الذي يحمل المعلومة والمعرفة، ويحتوي من الخصال ما ينسي الصعوبات والعراقيل، وينقلني في حديثه معي إلى الغربة والمعاناة التي تكبدها في حياته التي سبقت حياة زماني الجميل، ومسيرة حياته الدراسية في

الخرطوم في الستينات، وعمله في إمـارة دبي قبـل بزوغ فجر النهضة، ويحملني مع مسيرته في عصـر النهضة إلى ألوان أخرى من الإنجازات والرفاهية التي كبرت وكبرنا معها، ولذلك أصبح السفير محمـود صديقي ورفيقي في مجاوزة المدار المعرفي الذي كانت ملكتي الفكرية تحتفظ به، أقول أن السفير محمـود كان خير محفز لدخولي للحياة الجامعية مرة أخرى، أما العامل الأساسي لإكمال الماجستير فهو حاجتي إلى الإقتراب من الكتاب، فهو كما وصفه أبو عثمان الجاحظ، الجليس الذي يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد إستخراج ما عندك بـالملق، ولا يعاملـك بالمكر، إذا نظرت فيه أطـال إمتاعـك، وشـحّذ طباعك، وبسط لسانك، وعمّر صدرك، به تعـرف في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجـال في دهـر، وأحسب أن جيلي وفي زماني الجميل قد تربى علـى محبة البحث وإغتراف المعرفة من مصادرها، سـواء

كان الكتاب، أم وسائل المعرفة الأخرى من وسائل إعلام كالتلفزيون والإنترنت، هكذا وخلال سنتين دراسيتين أنهيت دراستي النظرية بنجاح بتقدير جيد جدأ، ومع ظهور نتيجة الإمتحانات تفاجأت - ذات يوم لا أذكره تحديداً - بصدور قرار وزاري يقضي بنقلي إلى ديوان عام وزارة الخارجية على غير العادة، حيث أن وجودي بالبعثة لم يتجاوز السنتين وحسب النظام فأن الإنتقال إلى ديوان عام الوزارة يتم بعد خمس سنوات.

لا أذكر الآن، الحالة التي كنت عليها، كان عقلي يذهب بي بعيداً ويعود بأفكار ضنية لا أجد لها أي تفسير، وتنتهي بي الحالة هذه إلى إتخاذ خطوة أفصل بها ما بين الأفكار والهواجس وبين نهاية خطوتي الدراسية، ودخلت مكتبي ولم أكن رأيت مكاناً أكثر منه ضيقاً وكآبة في تلك اللحظة، ومضيت لدقائق أنقر بقلمي على مكتبي الخشبي، أفكر فيما يجب أن

أفعله حيال ما أنا فيه، وبين الحالات المتباينة التي كنت عليها، خطرت لي فكرة مخاطبة معالي يوسف بن علوي بن عبدالله الوزير المسؤول عن الشؤون الخارجية، ألتمس منه تمديد فترة شهرين من تاريخ تنفيذ القرار لأتمكن من مناقشة رسالة الماجستير التي قد حددها مع الإستاذ الدكتور محمد الصوفي، الأستاذ المشرف، والتي عنوانها "الدبلوماسية العُمانية وتحديات العولمة" وحررت خطاب يتضمن طلبي هذا، والحق يقال أن معالي الوزير كان شخص بالغ الإنسانية، والحق أنه كان ولا يزال المسؤول الذي يدفع بالدبلوماسي نحو الإجتهاد وتطوير الذات وزيادة المعرفة، ولذلك كان رده على مطلبي كريماً جداً، حيث مدد الفترة إلى ستة أشهر وطلب مني التفرغ كاملاً للرسالة دون أن يتم تكليفي بأي عمل من قبل البعثة، وأخذني هذا الرد في جولة من التحليل الفكري، كانت إشارته في أعماقي توحي

أن نقلي إلى ديوان عام وزارة الخارجية هـــو أمـــر طبيعي وليس فيه ما يقلقني.

وتركت بلا قصد، رغبة العمل، وإكتشـــفت في داخلي أن إرادة التعلم وإثبات الذات تتفجـــر، ولا أزال أتذكر أولئك الأشخاص الذين كانوا إلى جانبي خاصة الدكتور محمد الصوفي أستاذ العلاقات الدولية بجامعة محمد الخامس والمشرف على رسالتي، فقـــد كان عوناً صادقاً في البحث عن ما يهمني ويعنـــيني، وعرفني على منهجية البحث العلمي قبل أن أبدأ في إختيار عنوان الرسالة، ولم يبخل علـــيّ بالمعلومـــة، وكان ما فعلته في هذه الفترة هو أنني سرت ســـيراً حثيثاً في إنهاء إجراءات مناقشة الماجستير، وكان أن تحقق ما أردت بعد ثلاثة أشهر من تـــاريخ ظهـــور نتيجة الإختبارات، وشكلت عمادة الجامعة لجنـــة المناقشة من الأستاذ الدكتور محمد الصوفي مشـــرفاً وعضوية: البروفسور عبدالهادي التـــازي مستشـــار

الملك الحسن الثاني ولايزال يقدم ذات الخدمات للملك محمد السادس، والإستاذ الدكتور عبدالواحد الناصر وهو الذي أشرف على رسالة الملك محمد السادس، والإستاذ الدكتور إبراهيم أبراش الذي أصبح فيما بعد وزيراً في السلطة الفلسطينية، والسفير الدكتور حسن المثني سفير جمهورية اليمن المعتمد لدى المملكة المغربية، ويشغل الآن منصب نائب وزير الخارجية في الحكومة اليمنية، وقد أجازت اللجنة رسالتي بتقدير مشرف جداً مع السماح بطباعة الرسالة، وقد قال البروفسور عبدالهادي التازي: أقر بأنه ولأول مرة يقع بين يدي مرجع متكامل عن الدبلوماسية العُمانية، وأكد هذه المقولة معالي الوزير المسؤول عن الشؤون الخارجية حيث أثنى على الرسالة وطلب مني طباعتها ككتاب يكون في متناول القاريء الدبلوماسي وغيره، وقد تحققت هذه الفكرة وطبعت ثلاثة آلاف نسخة، وقد أهديت صاحب الجلالة السلطان قابوس، نسخاً

منها، وحصلت على مكرمة مالية من جلالته، كاشفاً بذلك عن السجايا السامية المتفرد بها جلالته، وعطاياه التي شملت كل فرد من الشعب العُماني، وإهتمامه إلى جانب اهتماماته الكثيرة بالبحث العلمي والباحثين، جعلتني لفتة جلالة السلطان، أعبر بفكري على السنين في لهفة الباحث الجاد المتتطلع إلى الأفضل، معترفاً بالفضل والإمتنان تجاه بلدي وقيادتي، وأقفز عبر الإرادة والطموح نحو إنهاء دراسة الدكتوراه، متجاوزاً كل ما أراه صعباً أوعسيراً أو مستحيلاً.

لم يكن هدف الحصول على الدكتوراه من قبيل هواية إقتناء شهادة عليا، وإنما من قبيل الرغبة في الإشباع الفكري والمعرفي، خصوصاً بعد أن خضت تجربتي العملية، المرة الأولى التي تكونت لي معها رغبة الحصول على الدكتوراه كانت وأنا طالب في السنة الأولى من الجامعة، كنت قد بدأت أحب

البحث والقراءة وإقتناء الكتب، ويترسخ حبي هذا، بل تدركني الرغبة التي تدفعني إلى التجربة في البحث العلمي والكتابة خلال مسيرتي العملية، كانت الدائرة القانونية هي مكان التأسيس والأرضية الخصبة بالنسبة لي للإنطلاق في مضمار البحث والقراءة، وظل ذهني على مدى السنين الأربع التي قضيتها في الدائرة منشغلاً بفكرة إتمام الدراسة العليا، ولا أذكر كيف أنتهى تسجيلي الأول للدراسات العليا خلال عام ١٩٨٨م، أي بعد تخرجي بعام، كل ما أذكره أنني كنت أكثر المتحمسين بين زملائي الدبلوماسيين في الدائرة في مسألة إتمام الدراسة، وأنني أندفعت مع زميلي الأستاذ يعقوب السعيدي الذي سبقني في الإنضمام إلى وزارة الخارجية، وكان رئيسي المباشر، وهو من أكثر الزملاء تشجيعاً لي، نحو إتخاذ الإجراءات لتحقيق ذلك، وسرعان ما وجدتني في معمعة البحث العلمي وبين صفوف الكتب المتراصة في المكتبات، ووقفت متعطشاً أتطلع

الكتب، وأتعرف على الأسماء الكثيرة المكتوبة على الأغلفة التي كنت أراها للمرة الأولى، وبعد وقت ليس بالقصير خبت الهمة والعزيمة نتيجة ضغط العمل وكثرة السفر لحضور المؤتمرات والإجتماعات، وعندما أنهيت رسالة الماجستير إسترجعت شريط تلك الأيام، وقلت في نفسي، لابد من التسجيل لمرحلة الدكتوراه، وسوف تفرج إن شاء الله، بشرط وجود العزيمة والمثابرة، وما كدت ألملم أوراقي وكتبي وحاجياتي الشخصية إستعداداً للسفر والعودة إلى عُمان، حتى أنهيت إجراءات التسجيل في جامعة محمد الخامس لمرحلة الدكتوراه، وكان عنوان الرسالة "إنضمام سلطنة عُمان للمنظمة العالمية للتجارة"، عرفت بعدها أن أمامي طريق لابد من الوصول إلى نهايته، ولم أفكر في الأعباء كثيراً، كل ما أذكره هو الأجواء الجميلة والمفرحة التي كنت فيها، وحلّقت خلالها مع طموحي العلمي الذي

إنتهى بنهاية سعيدة تكللت بحصولي علـــى درجـــة الدكتوراه بمرتبة الشرف عام ٢٠٠٦م.

زمان دائرة المؤتمرات والمنظمات الدولية....

لا أدري هل صحيح أم لا؟ أننا نظل نحمل في جوانحنا الخوف والقلق لمجرد حدوث شيء ما، وهذا الشيء غالباً ما يكون طبيعيا، ولكن نتوهمه نحن عكس ذلك، فقد صدق الله العظيم بقوله: "خُلق الإنسان هلوعا"، قبل عودتي إلى ديوان عام وزارة الخارجية عرفت أنني عُينت في دائرة المؤتمرات والمنظمات الدولية، ولم أفكر في نوع العمل أو اسم المكتب كثيراً، كل ما كان يشغل بالي هو أنني كنت في حاجة إلى الراحة والجلوس مع الذات والإبتعاد عن جو العمل، لذلك وفي اليوم الأول دخلت الوزارة ومضيت مسرعاً إلى مكتب رئيس الدائرة السفير طالب بن ميران، في تلك اللحظة لم أبدأ الحديث أو السؤال عن شيء يُعنى بطبيعة عملي، كل ما فعلته هو أنني تقدمت بطلب التمتع بإجازتي

السنوية مدها ستين يوماً، ولا أذكر الآن عدد الدقائق التي قضيتها في مكتب السفير، كل ما أذكره هو أن السفير طالب قال لي مرحباً: أنت إضافة مهمة للدائرة فمرحباً بك بين زملائك، ولعلي أقول دون الخوض في التفاصيل أنني قضيت إجازتي بين أفراد عائلتي أشتري كل النواقص في منزلي وصيانته من التلفيات، خصوصاً وأنني قد أجرته خلال فترة وجودي في بعثة السلطنة بالرباط، وفي الوقت نفسه كنت في أيام الإجازة لا أفارق هواجسي وضنوني التي لازمتني مع صدور قرار نقلي، إلا أنه وبعد أن باشرت العمل، أندفعت نحو إكمال طريقي المهني بهمة ونشاط حياة زماني الجميل، وبعد أن حصلت على الماجستير، حملت في داخلي محبة إكمال الدكتوراه، ففي اليوم الأول من العمل بعد الإجازة أذكر تماماً أن السفير طالب بيدي وأخذني إلى مكتب كان قد إحتفظ بمفاتيحه، وقال: لقد أخترت لك هذا المكتب، وسوف تكون مسؤول عن الجمعية

العامة للأمم المتحدة مؤقتاً ومحكمة العدل الدولية، ومادمت من محبي البحث والقراءة فسأجعلك قريباً من البحث والدراسات.

كنت قد خططت أن أجمع أكبر عدد من الكتب والدوريات والمجلات والإطروحات التي تعنيني في التحضير لرسالة الدكتوراه، ولأني من محبي العمل ومُقدّسي الوقت، لم أعبأ بأوجاع الظهر التي باتت تلازمني من كثرة الجلوس ولا بالإجهاد الذي أصاب عيني، بل كنت أحتفظ بأوراق بيضاء إلى جانب سريري أدون فيها كل ما يخطر على ذهني وأنا مستلقي على السرير، وكما يعرف كل باحث ودراس، ليس لأية فكرة ذات فائدة أو تحمل إبداعاً مكان ما أو وقت معين، فعندما تقترب السانحة من الباحث أو المتعلم، تقول له إستغلني ولا تفوتني فالفرص لا تتكرر، وكما يعرف المخضرمون في هذا المجال أيضاً، ينبغي أن يتجنب الدارس الإستعجال

لأنه في هذه الحالة، سينتهي بالتأكيد تقريباً في دائرة يلف حولها من دون أن يجد مكاناً ليضع أفكاره ومعلوماته، وإذا أردت أن تنطلق في البحث العلمي وتكون قادراً على إنهاء ما بدأت، يجب أن تكون من فئة المتحمسين وليس من فئة المترددين، ولأنني كنت أحمل رغبة في مستقبل علمي أعلى وأرقى، أردت بالتأكيد أن أكون من فئة المتحمسين، لذلك أنهضت الهمة لأضمن ذات الأداء والإنتاجية في العمل وفي ذات الوقت الوصول إلى مرادي من العلم والمعرفة، ومشيت طوال فترة البحث وفق جدول دقيق ومحدد، وأدخلت أسلوبي بقوة في التعامل بيني والسفير طالب ميران، وكان من أشد المعجبين بهذا الأسلوب، ومضت الأيام لا أتجاوز في ممارستي لعملي السلم الإداري، وأخذت أتعود على زملائي في الدائرة ويتعودوا عليّ، وأنتقلت من المكتب الذي كان يفترض أن يكون مؤقتاً بعد أن قضيت فيه ثلاث سنوات تقريباً إلى مكتب الحد من التسلح،

وشاركت قبل ذلك في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، وكانت مهمتي شغل مقعد عُمان في إجتماعات اللجنة السادسة التابعة للأمم المتحدة.

أدركت من دورة الأمم المتحدة في عام ٢٠٠٣م، أنه ليس من المجدي أن تتأخر مشاركة الدبلوماسي في مثل هذه الإجتماعات، وأن الوقت المتميز للمشاركة هو عند السنة الثانية من إلتحاق الدبلوماسي بوزارة الخارجية، لتمكينه من إكتشاف عوالم السياسة الدولية في مطبخها والإحتكاك بشخوص صانعيها، وكان مكتب الحد من التسلح، قد فتح لي المشاركة في مؤتمرات دولية عديدة فقد شاركت في مؤتمر نيروبي لمكافحة الألغام ومؤتمر فيينا حول القنابل العنقودية، لعل هذه المشاركات قد أثرت الجانب المعرفي عندي في هذا المجال، وكان السفير طالب مقتنعاً بقدراتي العملية والعلمية، بالقدر

الذي يتقبل فيه الرأي الآخر والمشورة، وكنت دائماً أبدي ما لديّ من ملاحظات في أسلوب تسيير العمل في الدائرة، وما أكثر الطرق التي إستخدمتها لإقناع السفير لزيادة إنتاجية بعض الزملاء وإكتشاف قدراهم غير المستغلة، بل ما أكثر المرات التي كنت أناقش فيها مواضيع شتى خلال الإجتماعات الصباحية التي كان قد إستنّاها السفير طالب في الدائرة كونه ينحدر من خلفية عسكرية، فهو كان قائداً لسلاح الجو السلطاني العُماني، ولم أتوقف عن تقديم المقترحات والأراء التي كانت من شأنها أن ترقى بإسلوب العمل وتزيد من إنتاجية الدبلوماسي، فالذي جذبني إلى هذه الجرأة والإستمرارية، هو شخص معالي الوزير المسؤول عن الشؤون الخارجية المحفز والمعلم أولاً، وعونه وإرشاداته ونصائحه التي كانت لها الأثر الملموس في مسيرتي العملية ثانياً، وأضيف ثالثاً عالم المعرفة التي تفتح لي من آفاقها ما يظل في حاجة إلى الكشف إلى اليوم، وأظن أن هذه

الجرأة وفي كذا موقف كانت السبب في بعض خلاف مع رؤسائي، خلاف لا يفسد للود قضية، وكانت سببا في عودتي إلى العمل في الدائرة التي بدأت منها العمل في وزارة الخارجية عند تعييني – الدائرة القانونية – وعُينت نائب للرئيس فيها.

كل عوامل الإحباط التي تعرضت لها ظلت موجودة منذ أن عدت من بعثة السلطنة في الرباط، لم تُحبط من عزيمتي، لكن كان لابد لها أن تتجذر في ذهني وترتبط بعضها ببعض لتفعل فعلها في نفسي إلى أن وجدت الإجابة الوافية والشافية، على سبيل المثال، في وقت ما نحو عام ٢٠٠٣م، أدركت أن هناك ما يكفي من القول واللغط، وما يكفي من النظرات الغير حميدة، لنسج قصة حول أسباب رجوعي من بعثة السلطنة في الرباط إلى ديوان عام الوزارة قبل إكمال المدة المقررة، ربما كان ذلك السبب الذي جعلني شارد الذهن قليلاً وأطلب بعض

التفسيرات من خلال لقاء بعض المسؤولين الـــذين كانوا ضمن دائرة صنع القرار، خلقـــت لنفســـي تطمينات إيجابية من أجوبة المسؤولين الذين إلتقيتهم، وأشغلت وقتي في كتابة الكثير من فصول إطروحـــة الدكتوراه، وكنت أسافر إلى المملكة المغربية مـــرتين أو ثلاث كل عام بهدف إطلاع الأستاذ المشـــرف على ما أنجزته، ولم أجاوز عالم العمـــل إلى عـــالم البحث العلمي إلا بقدر ما كان يسمح به الوقـــت للقراءة، عقدت والأستاذ المشرف جلسات كـــثيرة، حول موضوع إطروحتي، وخصصت جلسات أكثر لقراءة الكتب الصغيرة منها والكبيرة، وأجتهدت في قراءتها لكي أظهر أمام أســـتاذي قـــدرة إســـتيعابي وفهمي، كلما إجتمع بي لمناقشـــة المواضـــيع الـــتي إنتهيت منها، وأذكر أنني كنت أسهر الليل وأقضي أكثر من نصفه لأفتش في صفحات تلك الكتب عن المعلومة، وأتصور أنه وخلال ما يقـــارب ثـــلاث سنوات ونيّف كانت كفيلة لإكتشـــاف الباحـــث

الكامن في أعماقي، طلب مني الأستاذ المشرف الدكتور محمد الصوفي أن أكون مبدعاً في رسالتي طرحاً ومضموناً، فلم أكتف بما لدي من كتب ودوريات، وإنما بحثت عن كل شاردة وواردة في الموضوع الذي أبحثه " إنضمام سلطنة عُمان للمنظمة العالمية للتجارة" من خلال الشبكة العنكبوتية "الأنترنت" وأعانتني إبنتي "هلايل" على استخدام تقنية العصر هذه، أستطعت خلال فترة عملي بدائرة المؤتمرات والمنظمات الدولية أن أتعاون مع زملائي وأن يتعاونوا معي على نحو ممتاز، وفي الوقت نفسه تقريباً، فإن تقارب العمر والفكر مكّننا بطريقة ما من إنجاز العمل بشكل ممنهج وبإسلوب إداري حديث.

في العمل الدبلوماسي حلقات متتامة تكمل إحداها الأخرى، حيث يكون الجديد في العلاقات الدولية من نوع ما أكثر إثارة وأكبر أهمية بكثير لو توافر

أيضاً الجديد من التحليل والمعلومة، فقد كان من الجيد أن تمتلك التحليل ثم كان من الجيد أن تمتلك المعلومة، وعندما تحصل على الأول تحصل على الآخرى، وكلما تحسنت نوعية إحداهما وتحسنت نوعية الآخر، إرتفعت إنتاجية العمل لديك، وأعتقد أن الأحداث الدولية، السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية، والثقافية، والدينية، هي حلقات متتامة بالنسبة للعمل الدبلوماسي، إنها تحتاج منك إلى وقت وجهد كي تقارب بينها بطريقة متتامة يُحسّن إحداها الآخر، أذكر إحدى النصائح المهمة التي تدعو الدبلوماسي أن يكون مهندماً، لذلك يتطلب العمل الدبلوماسي الحرص على إرتداء أفضل ما لدينا من ملابس أثناء العمل أو خلال المشاركة في الإجتماعات والمؤتمرات الإقليمية والدولية، وعلى الدبلوماسي أن يقوم على أكمل وجه بما يكلف به من عمل، ولا بد أن لا تجهد نفسك في الإلحاح في الحصول على مكافأة العمل الذي أنجزته، ففي مسيرة

العمل الدبلوماسي، عليك أن تمضي في طريقك منتظراً على أحر من الجمر فترة ترقيتك في السلم الوظيفي، ولتبديد التفكير في فترة الإنتظار، هو أن تمشي في طريق الإجتهاد والبحث عن المعرفة، والإبتعاد عن التفكير في ماذا لو ترقيت أنا ولم تترق أنت؟ ماذا لو ترقيت أنت ولم أترق أنا؟، أي نعم تنتابُنا خلال مسيرتنا العملية حالات من القلق، لأن الكثير من أحلام المستقبل الوظيفي تتوقف على الترقية والصعود إلى سلم وظيفي أعلى، إن الحال في هذه الأوقات يكون بمثابة إهتزازات وإضطرابات، وهكذا ووفق مواعيد الترقية المحددة قانوناً قد حصلت في عام ٢٠٠٤م على درجة مستشار، وأقول وفيما لا يزال هناك العديد من الزملاء راغبين في الترقية ويطمحون إلى تبوء وظيفة أعلى، أنه يمكن بفضل المناخ الوظيفي الممتاز في عُمان أن يتنافس العديد منهم الآن على أعلى المستويات، وأن ينالوا رواتب مرتفعة، بالإخلاص والإبداع في وظائفهم،

ففي زماني الجميل يمكنك الإبتكار من دون الحاجة إلى التفكير في المكافأة فهي مكفولة، وليس هناك أي شيء يستطيع مصادرة الفكر عندك .. فأنت تعيش زمان جلالة السلطان قابوس في دولة القانون.

وحين بدأت الدراسة وإجراء البحث في إطروحة الدكتوراه، كنت أشعر أحياناً أنني في مرحلة إنتقالية، فأنا أصبحت في دائرة فكرية عالية بالتعامل مع أشهر كتب المفكرين والباحثين، وهم يصفون بطـرقهم الخاصة الأوضاع والعلاقات الدولية، لكن، لم يكن معظمهم يُخبر ما لديه، فهم إما متحوطون، ومتحفظون لظروفهم الخاصة، وإما خائفون جداً، فهم كأنهم يعيشون في عالم يتكتمون فيه على سر كبير، نعم، كلهم يعرفون السر، لكن ما من أحد يريد البوح به، والحقيقة التي لم يرد أحد البوح بها، هي أن الكون قد تعولم بثورة معلوماتية هائلة، ونتيجة للتقارب بين القارات والشعوب، أصبح

التعاون والمنافسة الدوليان بين القطاعات الخاصة وبينها والأفراد وبين هؤلاء ببعضهم البعض، أرخص وأسهل وبدون إحتكاك مباشر، وأكثر إنتاجية لمزيد من الأشخاص، هل تعرف أن القيادة العُمانية قد أدركت هذه الحقيقة وإستعدت "لثورة التكنولوجيا المعلوماتية"، فقد بدأت بصياغة كل الأدوات الجديدة اللازمة للتعاون والإتصال مع المجتمع الدولي، والآن أستكملت عُمان كل الأدوات التي تجعل العمل يسير في كفاءة عالية، وهي من الدول التي سحبت الستارة ودعت إلى إزدهار العمل وإنجازه إليكترونياً، وقد دخلت الآن في عصر تحول فيه كل جانب من جوانب العمل، وكل جانب من جوانب الحياة، وكل جانب من جوانب المجتمع العُماني، ولم يؤثر هذا التحول فقط في كيفية إعداد الفرد العُماني للعمل، وكيفية التنافس فيه، بل في كيفية تنظيم العملية السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، فمع مرور الأعوام الأربعين في زماني الجميل، أعاد

جلالة السلطان قابوس الهوية الحضارية لعُمان، ومكانتها السياسية والإقتصادية والإستراتيجية الجغرافية، بإختصار، إن الكلمات الأولى للسلطان قابوس حملت هذه الملامح وحددت مرحلة البناء الحديث حين قال:- فجراً جديداً سيشرق على عُمان - وكانت الدعامة الأساسية لمرحلة البناء هذه تتمثل في الإنسان العُماني، ولم تبدأ المرحلة العُمانية في علاقاتها الخارجية بقيمة القيادة والسيطرة، وإنما تعاملت بقيمة الإتصال والتعاون، وكانت هذه القيمة ليست مؤثرة فقط في إنجاز العمل البنيوي في الداخل، وإنما في التعرف على المجموعة الدولية وأسلوب التعامل معها، وأين تتوقف السياسات الدولية وأين تبدأ، وكيف يوازن الإنسان العُماني هويته، والدور الذي يجب أن تلعبه السياسة العُمانية إقليمياً ودولياً، كل هذا أعيد ترتيبه في زماني الجميل، لأننا فيما مررنا ونمر به في هذا الكون المعولم فيه كل شيء جديد جداً تعاملت عُمان مع

كل الأشياء بمبدأ الحفاظ على الجذور والهوية العمانية ومواءمتها.

زمان الدائرة القانونية....

بدأت التفكير بشأن بقائي في دائــرة المــؤتمرات والمنظمات الدولية من عدمه، بعد إختلاف وجهــة النظر التي لم تفسد الود بيني وبين رئيس الدائرة، وما ترتب على هذا الإختلاف من فتور في التعامل، إلى أن باغتني نائب رئيس الدائرة السفير سالم برهــام بعض الشيء بالإشارة إلى أن قراراً وزارياً سيصــدر يقضي بنقلي إلى إحدى الدوائر، وقد كان بالفعــل إلى الدائرة القانونية، ومع أن الإنتقال الداخلي أمــر طبيعي وغالباً ما يكون لمصلحة العمل والموظف على السواء، فأنه على الرغم من ذلك صار جــزء مــن الإتجاه النفسي الذي أبرزه قرار نقلي في فترة سابقة من بعثة السلطنة في الرباط عام ٢٠٠٢م إلى ديوان عام الوزارة، لقد عرفت العمل بالدائرة القانونية منذ إنطلاق طاقات العمل الأولى، وكان لها في مسيرتي

العملية تأثير السحر في نفسي، فقد شدتني بكادرها الوظيفي وطبيعة العمل فيها، فقررت أن أكون واحداً من كادرها البارزين، وأخذت منذ الأيام الأولى أجتهد وأنافس زملائي واحداً بعد الآخر، جامعاً بين خبرتهم ودراساتهم ذات الخلفية القانونية، وكانت الدائرة القانونية هي أيضاً أول من إحتضنني وأخذ بيدي نحو الإبداع، فهي التي بلورت حلمي في إتمام دراستي العليا، وهي التي يتشرف كل من يرغب في العمل الواسع الجامع الضاغط بالإنتساب إليها، ولذلك أسعدتني العودة إليها للمرة الثانية، فقد كانت مرة أخرى أول الطريق إلى إعتلاء منصب نائب للرئيس، وكان السفير سالم برهام واحداً من أول من ألمحوا إلى إمكانية تحوّل مسيرتي العملية إلى الأفضل، اخترت في مسيرتي بالدائرة القانونية ذات العناصر التي آمنت بها ونفس المباديء التي انطلقت منها في مسيرة حياتي، والتي لم تكن بعيدة عن مباديء زماني الجميل الذي منحني كل عناصر الحياة

العصرية وييسر لي وسائلها وحفظ لي حقوقي وأهداني الحرية في الفكر والتعبير، وجعل القيام بالواجبات محتومة بالنجاح، فحينما نتمسك بالولاء الوطني والديني، نكشف الحب الشديد بين القمة والقاعدة، وتتحد الطموحات ويشتد التنافس بيننا كعُمانيين.

وما أن حصلت على القرار الوزاري حتى ذهبت إلى الدائرة القانونية، حيث إلتقيت بالمستشار سعيد السناوي الذي كان يشغل منصب الرئيس، تاركاً دائرة المؤتمرات والمنظمات الدولية التي عرفت من خلالها وبواسطة تخصص مكاتبها ما لم أعرفه من قبل عن المنظمات الدولية وشاركت في مؤتمرات لا يتسنى لي المشاركة إلا من خلالها، وعندما نقلت أوراقي وأشيائي الخاصة، ذهبت على الفور إلى مكتب الزميلين، المستشار سعيد الهنائي، والمستشار يحيى الناعبي لعلي أحظى بعبق الذكريات معهما،

لكني وجدت المستشار سعيد السناوي عندهما، وكان عليّ أن أصحبه إلى مكتبه، وأن أستمع منه إلى التعليمات والأفكار المهمة والأسلوب الأمثل لسير العمل بيننا، وكان لابد أن يعرفني المستشار سعيد السناوي بوصفي زميل له في العمل والتخصص، وكنت قد زاملته عدة إجتماعات في مناسبات مختلفة ضمن تشكيل لجان وطنية لدراسة مواضيع محددة، فكنا قريبين فكرياً ومتقاربين في السن عملنا معاً كما لوكنا نحمل ذات الصفات ونفس الطموح، وأخذ يعاملني كما لوكنت أنا الرئيس، فقد كان فرحاً بوجودي، سعيداً بإهتماماتي، عارفاً بكل دراساتي وبحوثي، وكم كانت سعادتي عندما أخبرني بأن عليَ أن أستخدم المكتب المخصص لمنصب نائب الرئيس، رغم أنني ظللت قلقاً إلى أن صدر القرار الوزاري بتعييني رسمياً في هذا المنصب، وجاءت الظروف كما أشتهيتها، وأصطحبتُ طموحي العلمي معي ومضيت في إستكمال رسالة الدكتوراه، وقد

ناقشتها في جامعة محمد الخامس بمدينة الرباط عام ٢٠٠٦م بروح مفعمة بالأمل، فضلاً عن نتيجة مشرفة جداً لي شخصياً وللباحث العُماني الذي أثبت جدارته وتفوقه في كافة المحافل وفي شتى المجالات، ثابتاً بذلك أن الإنسان العُماني عماد أساسي للتنمية في زماني الجميل الذي أعطى التعليم العالي نصيباً وافرا.

ولم أكن أعرف من معنى نقلي إلى الدائرة القانونية سوى أنني وُضعتُ في المكان المناسب الذي هو مستقراً لمن هم في تخصصي، على ذكر الأمكنة فإن موقع الدائرة لم يعد في المكان الذي تركتها فيه، فقد أصبح مقرها مع التوسعة التي شهدها الهيكل التنظيمي للوزارة في الجانب الأيمن من المبنى تجاور الدائرة الأفريقية ودوائر شرق وغرب آسيا، وبالطبع لم يفتني أن أسجل " المكان " في ذاكرتي، فلم أكن قاطعا الإتصال بكادرها خلال الفترة السابقة،

كتمت فضولي عند مباشرتي العمل في معرفة ما يدور في ذهن الآخرين بشأن نقلي إلى الدائرة القانونية وحول قرار تعييني نائباً للرئيس، وبحثت في وجوه من حولي عن المعاني التي تُبديها إتجاهي، فعرفت أن معظم تلك الوجوه تكن لي التقدير والمودة، وأنني أحظى بمكانة خاصة لدى أصحابها، ولا أزال أذكر ذلك الإستقبال والحفاوة من قبل كافة منتسبي الدائرة، وقد أدركت من معنى ذلك علامة أخرى من علامات الإنسجام في العمل بين كادر الدائرة القانونية، وهو الإنسجام الذي تعاقب عليه الكثيرين ومضى من هم في الدائرة على أثرهم، ولا أزال أذكر كيف كنت أحرص مع الزميل يحيى الناعبي على جعل إرشيف الدائرة أكثر تنظيماً ويسر.

المهم، واضبت على الدخول إلى مكتبي في الدائرة القانونية ُوأنا أحمل معي كل الأمل في أن أوفق في

المنصب الجديد، وتسمح لي الظروف في إنهاء ماتبقى لي من رسالة الدكتوراه، ومضيت في طريق الجد والإجتهاد، وتبادلت الأدوار في حضور الإجتماعات مع المستشار سعيد السناوي، وما هي إلا أشهر قليلة حتى حظي المستشار سعيد السناوي بثقة جلالة السلطان قابوس فعُين سفيراً للسلطنة في روما، عرفت فيما بعد أن السفير عامر الحجري هو من سيحل مكانه في رئاسة الدائرة، كان سفيراً للسلطنة في الجمهورية اللبنانية وكان قبل ذلك زميلاً لي في الدائرة نفسها مقرباً إلى نفسي وأخاً ودوداً يُعتمد عليه، فهو مفتون بأرائي القانونية وطموحاتي العلمية، وأنا في دورة الأيام هذه، لم يفتني أن أسجل حضوري المباشر من خلال العمل المتواصل مع معالي يوسف بن علوي بن عبدالله، وإنطويت حينها على حلم أن أكون عند حسن الضن وأهلاً للثقة التي كان يخصني بها معاليه، ولم أهدأ أو أتقاعس يوماً في إظهار جدارتي في العمل الذي ينسبه لي مباشرة،

وكان لي أمل كبير وثقة في معالي يوسف بن علوي، بأنه الشخص الأنسب والأجدر في تقييم نشــاطي العملي ومقدرتي الذهنية وإطلاعي المعــرفي، فهــو يمتلك الكثير من صفات المسؤول المتميز وكل سجايا المربي الحريص على تلامذته، ولذلك كان يقتــرب إنسانياً من كافــة المــوظفين في وزارة الخارجيــة، وظللت على ما أنا عليه من الحرص على إنجاز كل الأعمال الموكلة إلي، هاأنذا أسترجع هذا التواصــل مع معالي يوسف بن علوي الذي تــرك في نفســي أعمق الأثر ولا يزال، فقد أقبلت على مناقشة رسالة الدكتوراه بذهن صاف وروح عالية وحرصت على إتقان عملي، ففتح حصولي على درجة الدكتوراه آفاق المعرفة الــتي لا نهايــة لحــدودها، ولا حــد لتجددها، وآمنت أن عملي الدبلوماسي ســيكتمل دوره بالإسهام المعرفي المتجدد والجو المحيط به، وأن الدبلوماسي الناجح هو الذي يكون لــه حضــوره الفاعُل عند أصحاب القرار، فبدأت في زيادة إنتاجي

العملي كماً وكيفاً، وتضاعفت مشاركتي المحلية والإقليمية والدولية، فقد ترشحت عن السلطنة ضمن مرشحي دول أخرى لمنصب رئيس اللجنة القانونية الدائمة التابعة لجامعة الدول العربية، وقد كنت الفائز بهذا المنصب للفترة من ٢٠٠٧م إلى ٢٠٠٩م، ولم أتوقف عن العمل الأكاديمي، فقد حظيت بإلقاء محاضرات على منتسبي المعهد الدبلوماسي، وطلبة أكاديمية الشرطة، وكلية القيادة والأركان، ومركز الدراسات الإستراتيجية، وكلية الحقوق بجامعة السلطان قابوس، وأحتفظت بجرأتي المعتادة في النقاش وإبداء الرأي، ولم أكن أتردد في الإختلاف مع المسؤولين في الرأي، خصوصاً إذا وجدت عندي مبرراً مقنعاً للإختلاف، وكان معظم المسؤولين يتقبلون هذا الإختلاف بصدر رحب، محسنين الظن بمقدرتي القانونية، وإمتزجت تركيبتي المعرفية مع الإخلاص والإبداع في العمل، وفي الوقت

نفسه الإستفادة من كل ما هو داعم للحضور والبروز والتجدد.

ومن المؤكد أن الإهتمام الذي أبداه معالي يوسف بن علوي لي كان يرتبط بنوع الإبداع في العمل والجانب المعرفي الذي أتميز به عن غيري، أعني طريقة وأسلوب الدبلوماسي في طرح الملفات ومناقشة المواضيع، وإذا كان نوع الإبداع والكم المعرفي عندي دفع بأصحاب القرار إلى الإقتناع بقدراتي العلمية والعملية، فإن الإقتناع نفسه قادهم إلى وضع اسمي ضمن قائمة السفراء المرشحين، وكنت أرى هذا الإقتناع ثمرة لمشوار حياتي العملية الطويلة، خصوصاً بعد أن أصبح عامليّ الخبرة والتأهيل الأكاديمي متوفرين عندي، فنعمت بثقة حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم، وأختارني المقام السامي سفيراً لجلالته في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العُظمى، وقد

أدركت في ثقة جلالة السلطان أن القيام بالواجب والإخلاص فيه والوفاء للوطن وقيادته ترفع من قيمة الفرد وتبوءه مكانة رفيعه، كانت مفاجأة سارة ومذهلة، ويوم أن أبلغني معالي يوسف بن علوي شخصياً الخبر لم تسعني الدنيا من الفرحة، وحين خرجت من مكتبه وجدت أصداء الخبر قد إنتشر في أرجاء الوزارة، وقد إنتشيت فرحاً ولم أستطع أن أخفي ما يدور في داخلي فقدت فضح السر عيوني ووجهي المتهلل بشراً، عشت الأيام التالية أفراحاً أسرية غامرةً، ولم تمر ثلاثة أشهر على صدور المرسوم السلطاني السامي بتعييني سفيراً حتى كنت في مدينة طرابلس الغرب عروس البحر الأبيض المتوسط يوم ٦ سبتمبر ٢٠٠٨م.

زماني.. يستمر

الآن وبعد مرور أربعين عاماً وأنا أُقلب مسيرة كل هذه السنين في زماني الجميل، لا بد من وقفة مع التاريخ العُماني .. عن السيد سعيد بن سلطان، وكيف ردّ جحافل الغزاة من برتغاليين وغيرهم، وعما قامت به الدبلوماسية العُمانية من إستخدامات حسنة لأرض عُمان وطبيعتها في خدمة المصالح الوطنية، وعن الشعراء الذين تغنوا بالأمجاد، ونضال العُمانيين في البحار والمحيطات، وحكايات لا يتسع لها المقام هنا، لأن صفحات التاريخ ملأى بما يدهش الذين تابعوا وقرأوا وتتبعوا مركز عُمان الإنساني الحضاري، ولا أرغب في أن أطلق لنفسي العنان كي لا أسهب في الحديث عن تاريخها وعن سلاطينها وعلمائها ومفكريها وسفرائها الأوائل وكنوزها الكثيرة، وأكتفي بالإشارة إلى منعطف زماني الجميل

حين تولى صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد الحكم، فاستطاعت من خلال قيادته أن تستعيد مكانتها التاريخية وأن تتبوأ موقعها الإقليمي والدولي المناسب، وقد عرفت سياستها الداخلية والخارجية إنطلاقة متميزة وحكيمة وحركة مكثفة، وعززت دبلوماسيتها المرنة المنطبعة بالواقعية والحياد الإيجابي، أشعر جيداً الآن أنني دبلوماسياً نهلت من فلسفة خاصة للسياسة الخارجية أستطاع صاحب الجلالة السلطان قابوس أن يترجمها بتصوراته في علاقات عُمان ضمن محيطها العربي والإسلامي والدولي، ويشرف على مجرياتها بما يجسد حضوره على المستوى العالمي، الأيام تتوالى وتتساقط حبات مسبحة السنين وزماني يزداد جمالاً وقدرة على توظيف المؤهلات الذاتية رغم محدودية الإمكانات، في الحقيقة لدى تأدية قسم اليمين أمام مقام صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم، شعرت بالرهبة، وكم كنت يقضاً في قراءتي لقسم اليمين، أحسب

حركتي وفي ما يمكن أن أتقيد به من بروتوكول في مثل هذا الموقف المهيب، فالمكان وصاحب المكان يجعل تصورات المرء وأفكاره تتفكك كلها وتبقى العلاقة الظاهرية بالأعين أما المحبة لهذا القائد الفذ تبقى مكنونة في الصدر، من الصعب وصف حالة الفرحة عند مصافحة جلالة السلطان قابوس لأنها كانت لحظة ممزوجة بهيبة الرجل الذي تصافحه ويتطلب الأمر بعض التركيز، لكن وجدته هو نفسه القائد الحازم والإنسان الوقور الحاني العطوف الذي بادرني بعد السلام على مقامه السامي بالقول .. بارك الله فيكم.

أجمل ما يمكن ذكره عن تعيني سفيراً لسلطنة عُمان لدى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى، أنه صادف قيام صاحب الجلالة السلطان قابوس بزيارة أخوية لهذا البلد الشقيق، وأن الظروف تحتم إعتمادي قبل وصول جلالته، وقد شعرت

بسعادة بالغة عندما عرفت أن مرسوم تعييني يجب أن يصدر عاجلاً لأتمكن من تأدية قسم اليمين أمام المقام السامي، ولم أدع ذلك اليوم دون أن أتأكد من أن المرسوم قد رُفع إلى جلالة السلطان للتوقيع عليه، وهو المرسوم الذي صدر تحت رقم ٢٠٠٨/٧٣ بتاريخ ٢٠٠٨/٥/٢٠م، كنت متأثراً بما ينتابني من إحساس الفرح والتميز الذي حظيت به بصدور المرسوم السلطاني، ولم يكن ثمة على مدى الأيام التالية ما يشغلني عن التفكير بمكان وزمان تأدية قسم اليمين أمام مقام صاحب الجلالة السلطان المعظم على ظهر اليخت تحفة الزمان "آل سعيد" أو في إحدى بعثات السلطنة في المكان والزمان الذي يتواجد فيهما صاحب الجلالة المعظم حفظه الله، لكن كانت هناك تكهنات .. نعم .. إما أن أدي قسم اليمين وإلا لن أتمكن من تقديم أوراق إعتمادي قبل الزيارة التاريخية المرتقبة لجلالة السلطان، كنت قد أردت شيئاً جديداً ومختلفاً ومتميزا .. إن أمكن

.. لم يقدم لي حظي يومها الظرف الذي يمكنني من أن أكون أول سفير عُماني يؤدي قسم اليمين أمام صاحب الجلالة على ظهر سفينة خارج عُمان، ولكن مع ذلك فأن إرادة جلالة السلطان المعظم فوق أنها كرمتني بالإختيار، جعلتني أول سفير مقيم في الجماهيرية العُظمى وهو شرف عظيم وميزة كبرى وتكليف سامي، ثم توالت الأيام وأكتملت فرحتي في زماني الجميل بإستلام أوراق إعتمادي سفيراً مقيماً للسلطنة في الجماهيرية العُظمى.

لم يمض أسبوعان إلا وكنت في مطار طرابلس العالمي يستقبلني مدير إدارة الحصانات والإمتيازات في جهاز المراسم الليبي ومجموعة من الأخوة السفراء العرب المعتمدين لدى الجماهيرية العظمى وفي مقدمتهم عميد المجموعة العربية سعادة سعد بن علي المهندي سفير دولة قطر ونائب العميد سعادة باسم عبدالله الأغا سفير دولة فلسطين والسكرتير ثانِ سالم

إبراهيم بن أحمد النقبي نائب رئـيس بعثـة دولـة الإمارات العربية المتحدة والمستشار سيف الكلبـاني نائب رئيس بعثة السلطنة وأعضاء السفارة المستشار سعيد العمري وسـكرتير الأول عبـدالله السـبتي والملحق الدبلوماسـي بـدر الرواحـي والملحـق الدبلوماسي عبدالله الحسني، وإستقبالي هذا هو عبارة عن سنة إستنها الأخوة السفراء العرب "بفكرة نائب رئيس بعثة السلطنة" عند مقدم سفير عربي جديد إلى ليبيا، والفكرة في موضوعها وشكلها ليست سـنة حميدة في العمل الدبلوماسـي فحسـب بـل لأن المجموعة العربية في طـرابلس تتميـز بالتجـانس والحيوية، كان اللقاء الأول حميمياً أزال عن كاهلي وعثاء السفر وعبء الغربة، وحمل عنواناً للعلاقـة الطيبة التي تولدت فيما بيني وبين مجموعة الأخـوة السفراء جميعهم، ثم توالت اللقاءات بيني وبين كافة السفراء المعتمـدين في مكاتبـهم العـرب منـهم والآسيويين والأفارقة والأوروبـيين، ونجحـت في

كسب ثقة وتعاون كل هؤلاء نجاحاً لم أكن في الحق أتوقعه، وعلى الجانب الآخر برز التعاون اللامحدود من قبل الأخوة المسؤولين في الجماهيرية العظمى، وأسهم هذا التعاون في تسهيل مهمتي كسفير، لم يكن المجتمع الليبي بالغريب على من هو مثلي، فالشعب الليبي العربي لا يختلف عن الشعب العُماني من حيث الطيبة والكرم ودماثة الخلق، بل أنه يشترك إلى حد بعيد مع الشعب العُماني بالذات في كثير من مفردات الحياة الإجتماعية ونسيج الثقافة والعادات والتقاليد الشعبية، فهو يمسك وبشدة بمفاصل التكوين العروبي والحياة البدوية، ويفاخر بأصله العربي الذي لم تؤثر فيه الحياة المستوردة وتقلبات العولمة وهجمات التحريف والتغريب.

في الشهر الأول من وصولي وفي أيام كانت طرابلس لازالت تتباها بإنفاس الخريف، وأشجار حقولها وبساتينها تستبدل ثوبها بآخر أخضر جديد،

حللت في فندق "كرونثيا باب أفريقيا" الجميل المطل على البحر في مدينة طرابلس عروس هذا البحـــر، يومها ليبيا كلها منشغلة في التجهيز للعرس التاســـع والثلاثين لثورة الفاتح العظيم التي قادها القائد معمر القذافي، تتجمل ســاحتها الخضــراء بــالكورنيش المتلالىء بأضوائه الجميلة، يموج بالبشر وقت المساء، ترمقه الميناء بأعينها الحانية وتمرح فيه السفن الراسية يلتقط ربابنتها وبحارتها جمال المدينة الزاهي، يقذفهم هدوءها نحو الإسترخاء والراحة الذي تفتقده كــثير من المدن، وتجذبهم مسطحاتها الخضــراء وفســائل النخيل الباسقة وهي تتمايل يمنة ويســرة بالريــاح المحملة بنسائم باردة عليلة، شاعرين بأمــان الأرض التي إهتزت وربت، مستيقضين على طبيعة أظهرت الجمال الساحر الأخاذ، الطرق إمتلأت بالمركبــات تغدو ذهاباً وتعود إيابا، وشارع "قرقارش" يمــوج بالحركة بينما عمرت ساحات الأســواق بالباعــة والمشترين، ومجاميع الشباب تُسرع خُطاها نحو تبادل

المزحات والضحكات، وقد بدأوا العودة إلى مدارسهم وجامعاتهم وكلياتهم ومعاهدهم، وبثوا الحياة في مجتمعهم الثقافي مثل ما هي علية في مناحي حياة المجتمع الليبي، في ذلك الشهر لم أحس بالملل رغم أن أهلي ليسوا معي، ولم أشعر بالوحدة فقد وجدت في الشعب الليبي عزوة وأنسا والأرض الليبية بيتاً وسكنا، وكونت مع زملائي الدبلوماسيين العرب أسرة كبيرة هونت عليّ بعدي عن أسرتي الصغيرة وأحتفظ بعلاقات وثيقة مع سعادة محمد بن عبدالله طاسجي"أبوهتان" سفير المملكة العربية السعودية، وسعادة عبدالله سليمان الحمادي "أبوحماد" سفير دولة الإمارات العربية المتحدة، وسعادة مبارك عبدالله العدواني "أبومشاري" سفير دولة الكويت، وسعادة محمد عبدالله السبيعي "أبوعبدالله" سفير دولة قطر، وسعادة محمد أمين عبدالله الكارب "أبوأمين" سفير جمهورية السودان، وسعادة محمد إبراهيم النقلي "أبوعبدالله" سفير

جمهورية مصر العربية، وسعادة محمد المنفي قرعان سفير المملكة الأردنية الهاشمية، وسعادة هلال الأطرش سفير الجمهورية العربية السورية، سعادة مولاي المهدي العلوي سفير المملكة المغربية، وسعادة محمد لحبيب براهم سفير الجمهورية التونسية، وسعادة منور الربيعي سفير جمهورية الجزائر، وسعادة محمد الأمين ولد خطري سفير الجمهورية الموريتانية، وسعادة نزيه عاشور قائم بأعمال الجمهورية اللبنانية، وسعادة عاطف مصطفى عودة سفير فلسطين المعين خلفاً لأبوالعبد باسم الأغاء وغيرهم من السفراء.

قضيت الشهور التالية أحاول الإحاطة بشوارع طرابلس ومعالمها، وأجاهد لبناء علاقات واسعة ومعرفة القيادات والمؤسسات في الجماهيرية العظمى، ثم أستغرقت في العمل على تحسين حركة العلاقات الثنائية بين سلطنة عُمان وليبيا، وبدأت بفك معوقات التجارة بين البلدين، وكان لابد من إيجاد

الوسائل للتواصل الثقافي بين الشعب العماني والشعب الليبي، حتى أحيط علماً بجملة العوامل المؤثرة والمتأثرة ببعضها البعض، ثم بما كان له علاقة بمنبع الأصول العربية في عُمان وشبه الجزيرة العربية، وكان لا بد كذلك من عقد المقارنة من خلال إقامة فعالية ثقافية تُمكن الشعب الليبي من التعرف على جوانب الثقافة العُمانية، لم تطل المدة حتى تقرر إقامة الأسبوع الثقافي العُماني في مدينة طرابلس، كنت قد وضعت لنفسي منهج واضح لأصل مهمتي وغايتها، فبدا لي الأمر أيسر مما ظننت، لم يكن عليّ سوى تشجيع الأفراد والجهات الرسمية على بناء الثقة والتعامل مع مكونات التنمية في كل من عُمان وليبيا، وبالطبع لم يكن في مقدوري إلا جعل الصورة الواقعية لبلدي والبلد المعتمد فيها أمام المستثمر والتاجر والمثقف وعليه هو أن يقدر المصلحة التي يبتغيها والضوابط التي تخدم المصلحة العامة، فليس من الصواب أن يحكم الدبلوماسي على مقدار

الجهد الذي يبذلة في بناء العلاقات بين بلده والبلـــد المعتمد فيه لمجرد بعض معوقات تعتري عمله، وليس حسناً ذاك التهويل الذي يصـــدره عـــن العوامـــل والمكونات والظروف بسبب سلوك خاص من فرد ما أو لجهة معينة، بل الصواب أن يتخذ موقفاً يمكن من خلاله أن ينظر للأمر نظرة شاملة وإحاطة بجملة الظروف المحيطة بمجتمعه ومجتمع البلد المعتمد فيه.

وكما أن علاقة الدبلوماسي بمحيط المجتمع المعتمد فيه يجب أن تكون مرتبة ووثيقة، كذلك العلاقة بين الدبلوماسيين بعضهم ببعض في البعثة التي يعملـــون بها، ما هي القيم التي ستحكم العمل الدبلوماسي وما المصالح التي سيحترمها ويروج لها؟، نقول أن الذي تحكمه اليوم هي القـــيم الإقتصـــادية، أي حيثمـــا ستذهب سياسة بلـــد الدبلوماســـي الإســـتثمارية والإقتصادية والتجارية، لذلك فإن الذي يقلق الدول ومواطنيها هو كيفية التعامل مع الإستثمارات التي لم

يعد يحدها شيء إسمه حدود، فإذا إستطاع الدبلوماسي أن يروج لمكونات فرص الإستثمار في بلده وكسب ثقة المستثمرين، ونقل الصورة الواقعية لإمكانات الإقتصادية والإستثمارية في بلده وفي البلد المعتمد فيها، لتستفيد العلاقات بين البلدين، ويحقق الدبلوماسي النجاح لمهمته، ويكسب الثقة، ولكن لن يتحقق كل ذلك إلا من خلال علاقة وطيدة بينه والدبلوماسيين الآخرين، فلنتحدث عن الإبتكار في العمل الدبلوماسي، الحقيقة أن الدبلوماسيين لا يبالون كثيراً بشأن المكان الذي أعتمدوا فيه، لكنهم يريدون تطوير العلاقات الثنائية، لذلك تجدهم مرغمون على تحفيز العوامل والوسائل المشروعة في المجتمع المعتمد فيه، وفي حاجة لمعرفة أن الإستخدامات الجيدة للوسائل ستبقى على مقربة من نتائج العمل الدبلوماسي، فهناك خليط من الأفكار والإهتمامات والقضايا، عامة وخاصة في مسيرة

العمل الدبلوماسي مصحوبة بعوامل الأمل والقلق والشوق والرغبة في عمل كل شيء أو أي شيء.

وبعد أن حططت رحالي في مترل بمنطقة السراج في العاصمة الليبية مستمر في مسيرتي .. في زمان جميل مستمر، موقف بروتوكولي طريف حدث لي مع بداية مباشرة عملي في طرابلس، حيث يذكر أن الجماهيرية العظمى اليوم تتبوأ مركزاً قارياً قيادياً، فالقائد معمر القذافي هو قائد الثورة ورئيس الإتحاد الإفريقي وملك ملوك أفريقيا التقليديين، تلقيت شأني شأن السفراء المعتمدين في طرابلس دعوة لحضور إفتتاح القمة الأفريقية في مدينة سرت، وكانت هناك طائرة مخصصة لنقل السفراء من طرابلس إلى سرت، وصادف أن هناك طائرة أخرى ستقل ملوك أفريقيا التقليديين وهم الذين توجوا القائد معمر القذافي ملك ملوك أفريقيا، عند وصولي قاعة التشريفات بمطار طرابلس العالمي تبعت أحد ملوك أفريقيا

التقليديين وصعدت معه إلى الصالة العلوية ضناً مني بوجود الأخوة السفراء هناك وإذا بي أجد كل الجالسين هم ملوك أفريقيا ولا يوجد ولا سفير في تلك القاعة، ولم تمض إلا عشر دقائق حتى طُلب من الجالسين صعود الطائرة وأنا واحداً منهم، أين زملائي السفراء؟ هكذا سألت نفسي، أنتظرت الطائرة حتى أكتمل كل الركاب ثم أقلعت بنا إلى مدينة سرت وعقلي يذهب بي بعيداً لماذا أنا السفير الوحيد؟ هل السفراء الآخرين أعتذروا أم ماذا؟، جلست بجانب أحد الملوك الأفارقة التقليديين، وتعرضت للسؤال التالي: أنت ملك أي طائفة أفريقية؟ وكان سؤال في ظاهره منطقياً لأني كنت ألبس الزي التقليدي العُماني "الخنجر والبشت" فقلت له مداعباً ألأنني ألبس زي تقليدي مثلكم؟!، وأستمر الحديث بيننا وقلت له خلاله من أنا وطبيعة عملي وعرفته ببلدي، وبعد خمسة وأربعين دقيقة وصلنا مدينة سرت، وبعد أن تداركت موقف

مصافحة الملوك التقليديين للقائد معمر القذافي ملك ملوك أفريقيا بأن إنحرفت إلى جهة اليسار عن مسار المكان الذي كان يقف فيه القائد، دخلت قاعة الإجتماع وجلست على مقعد في مكان كان مخصص للملوك التقليديين، وظللت أفكر فيما أنا فيه وفي السبب الذي لم أرى فيه زملائي السفراء، وبينما أنا في حالة التفكير هذه، إذا بي أرى كل السفراء قد دخلوا القاعة، وأخذوا جميعهم مقاعدهم في مكان ليس ببعيد عن المكان الذي أجلس أنا فيه، وظلوا يرمقونني بالنظرات وهم يتساءلون لماذا سفير سلطنة عُمان يجلس مع الملوك التقليديين؟، وبعد أن إنتهت الجلسة الإفتتاحية أسرعت إلى مكان السفراء، وعرفت منهم أنهم أتوا في طائرة خصصت لنقل السفراء فقط، وأنهم كانوا في قاعة التشريفات الأخرى في الطابق الأرضي بمطار طرابلس العالمي، فقلت لهم مازحاً هل ترغبون في العودة بطائرتكم أم سترافقونني في الطائرة المقلة للملوك التقليديين؟.

زماني .. يزداد جمالاً

عرف صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد منذ الوهلة الأولى لتوليه الحكم أن المجتمع العُماني لن يحتاج فقط إلى إعادة ترتيبه والمحافظة على هويته، بل بناء الإنسان أيضاً، ففي عصر العولمة، ستثير التوترات بين هويات الشعوب نزاعات أكثر حدة، لذا وضع جلالة السلطان الإنسان العُماني في مقدمة أهداف سياسته والغاية الأولى في مرتكزات النهضة العُمانية، فقد أكد بأنه: بقدر ما ينجح المجتمع في النهوض بموارده البشرية وتطويرها، وفي تأهيلها وتدريبها وفي صقل مهاراتها وتنويع خبراتها يكون نجاحه في إقامة الدولة العصرية المتقدمة في مختلف المجالات..، فسياسات التعليمية في زماني الجميل قامت على رؤية واضحة وشاملة، ثمة أمر آخر يجب التأكيد عليه هو أن الإنسان العُماني حظي أيضاً

برعاية صحية وإجتماعية وقطع شوطاً كبيراً وإيجابياً في أبعاده الثقافية، فها هي "دار الأوبرا السلطانية" شيدت وهناك دراسات على أعلى مستوى حول وضع المسرح ومستوى الدراما في عُمان، وقامت المرأة ومنذ بداية المسيرة العُمانية الحديثة بدورها الوطني بإعتبارها نصفاً مؤثراً وعنصراً هاماً في التنمية الإقتصادية والإجتماعية، وشعرت أنا كوني واحد ممن نال الرعاية والإهتمام التي حظينا بها، بأن كل الفرص قد هيأت لبناء قدراتي وصقل مواهبي وتحقيق طموحاتي والإسهام في جهود التنمية الوطنية، وقد شعرت خلال مسيرة زماني الجميل بأني شريكاً في صنع القرار ومُكنت من القيام بدوري ومسؤولياتي، واليوم أنا أعيش عصر الشورى والتكامل ووحدة الفكر، ويمكننا أن نرى ذلك من خلال حزمة القوانين والتشريعات التي يأتي على رأسها النظام الأساسي للدولة.

أعرف أن كل فرد من أفراد الشعب العُماني يقوم بما عليه القيام به، لأنه يريد أن يحصل على مستقبل أفضل وزمان أجمل، إيماناً منه بأن ما تحقق هو ثمرة لفكر مستنير وسياسة حكيمة، وأن المستقبل مرتبط بعالم يتقدم أكثر فأكثر نحو وسائل أكثر سرعة وأشد تعقيداً، لذلك ليس هناك ما يضبط عالم الشبكة العنكبوتية، فالمطلوب في عصر العولمة، قدر من الإستجابة والتفاعل للتكيف مع المتغيرات والآثار المصاحبة لها على المستوى السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي، وكان أداء زماني الجميل سياسياً وإقتصادياً وتنموياً، قد حظي بتقدير كبير وواسع النطاق داخلياً وعربياً وإقليمياً ودولياً، وأختير المقام السامي لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد في إكتوبر عام ٢٠٠٨م، شخصية العدالة والإنسانية بإجماع الهيئات الإستشارية والمشرفة والعاملة في مجلس العالم الإسلامي للإعاقة والتأهيل، ودار الإستشارات الطبية والتأهيلية،

ومؤسسة العلم للصحافة والنشر والتوزيع، ومباركة وتزكية شخصيات عربية وإسلامية وعالمية شاركت في الإختيار، وعندما تكون القيادة العمُانية بهذه المكانة الإنسانية فليس من الصعب أن تحافظ سلطنة عُمان على موقعها كأفضل الدول العربية والأفريقية إستقراراً ، وأن تحتل المركز الثاني عربياً والحادي والعشرين عالمياً في مؤشر السلام العالمي عام ٢٠٠٩م، وأن تظل واحة للسلام بقيادة جلالة السلطان قابوس المعظم فيما يتصل بالتنمية المدروسة والحكومة الناجحة في منطقة تشهد نزاعات ونمواً بلا قيود، لأن جلالة السلطان أكد بأن التعاون الذي تقيمه سلطنة عُمان مع المجتمع الدولي في خضم المصالح والسياسات المتداخلة، يأتي إنطلاقاً من المصالح العليا الوطنية وإسهاماً في إستتباب الأمن والرخاء في أرجاء العالم.

لقد لازمني شعور باليقين في زماني الجميل، وشعور مماثل عند كل فرد من الشعب العًماني، بأن البساطة والتلقائية والديمقراطية المباشر هي غريزة العلاقة بين جلالة السلطان قابوس وبين أبناء شعبه الوفي على إمتداد الأرض العمانية، وفي ظل هذه العواطف المتبادلة إنعكست تلك العلاقة بين جهاز الدولة التنفيذي وبين طالبي الخدمة من المواطنين، فقدرة القيادة العُمانية على توظيف الكيمياء الخاصة التي تربطها بالشعب هي التي ساعدة على تحقيق الوحدة الوطنية، وبناء القوة الذاتية، وتشييد إقتصاد قوي على أساس من الأمن والإستقرار والإدارة الحكيمة، وبإعتباري عُمانياً تفتقت بواكير الوعي المعرفي والفكري عندي مع فجر النهضة العُمانية المباركة و آمنت بفكر القيادة الحكيمة لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس، فمن حقي أن أجعل كل عشقي ونظرتي بأكملها في السمات المثالية التي تغذيت بها من فكر هذا القائد المتفرد في عصره، وبأن مجتمعنا

العُماني أوجد تقسيمات إدارية عصرية مميزة منذ عام ١٩٧٠م، عزز جهود التنمية الوطنية كـون أربـع محافظات هي: مسقط وظفار ومسـندم والبريمـي، وخمس مناطق ضمت الباطنة، والظاهرة، والداخلية، والشرقية، والوسطى، حوت عدد مـن الولايـات وصل مجموعها الكلي إلى "٦١" ولاية، تحقق مـن خلالها تكاملاً وتوازناً في توزيع ثمار التنمية الشاملة، وأن يظل عقلي متمسكاً بالمحاور الأساسية للدولـة العصرية التي بناها جلالة السلطان والـتي ترتكـز وتدور في نطاقها جهود التنمية الوطنية على إمتداد الأربعة العقود الماضية، وأن أفاخر بأهمية ودلالة مـا يتحقق على صعيد ترسيخ مؤسسات الدولة وتطوير وتفعيل أدائها في زماني الجميل، وأن أجاهر بحركـة المجتمع العُماني وتطوره الإقتصادي والإجتمـاعي، الذي يتجاوب مع تطلعات الشـعب العُمـاني في مشاركته وتكامله مع المؤسسات التنفيذية والبرلمانية وإستقلال القضاء المتسم بالعدل والنزاهة.

ربما تسأل، ماذا تعني عندما تقول بالسياسة العُمانية المرنة؟ وكيف مدت هذه السياسة جسور المودة والتعاون؟، لم يحدث ذلك مصادفة، فالسياسة العُمانية تكتسي ملامح وسمات الشخصية العُمانية وخبرتها التاريخية، عززتها حكمة وبعد نظر قيادة جلالة السلطان قابوس في التعامل مع مختلف التطورات والمواقف، لذلك فقد تأثرت في مسيرتي العملية بسمات السياسة العُمانية الهادئة الصريحة الواضحة حينما أتعامل مع الآخرين، وهذا التأثر مكنني من طرح مواقف ووجهات نظر بلادي بثقة عالية، والمصداقية في مرتكزات السياسة العُمانية وعلاقتها الواسعة وخبرتها التاريخية منح سلطنة عُمان الثقل والفاعلية في تحركاتها الداعمة لجهود تعزيز السلام والإستقرار الدوليين، وصارت قدوة يحتذا بها في دعم جهود التنمية الوطنية، وقد مدت بذلك جسور المودة والتعاون وفق مبدأ جوهره أن الإعلام

مرآت للشعب العُماني، يعكس إهتماماته، ويتبنى أولويات حاجاته، وفي زماني الجميل يقدم الإعلام صورة آمنة ومتكاملة لأصالة وتماسك وترابط أبناء الشعب العُماني، وسمات وخصائص شخصيته المتميزة، ويبين مواقف وسياسات سلطنة عُمان في تواصلها مع الآخر، والدعم الذي تقدمه لكل ما يحقق رخاء وسلام وإستقرار منطقة الخليج العربي وشعوبها، وتعزيز الصلات فيما بين أبنائها، مبتعداً عن الإثارة والصوت العالي، وكما يلاحظ كل من يتابع النهضة العُمانية الحديثة، يعرف من تاريخ مسيرتها أن إرتفاع مؤشرات التنمية على كافة جوانبها لا يمكن أن تتحقق بعيداً عن مؤشر اللحمة الوطنية المتميزة والتكافل المنقطع النظير بين أبناء الشعب العُماني، وأكبر دليل على ذلك ما رسمه الشعب العُماني في الملحمة الإنسانية الفريدة والمتفردة عندما تعرضت سلطنة عُمان للأنواء المناخية الإستثنائية عام ٢٠٠٦م، فمن المعاني التي تجسدت،

أن الروح الوطنية متوقدة عند أبناء الشعب العُماني، وأثبت أن زماني الجميل قد ركز في التنمية على الإنسان ورفع عنده روح التضحية، وزاد قدرته على القيام بالعمل وإنجاز مهامه.

تذكر دائماً، أن العالم اليوم يتسابق إلى القمة، وهذا أمر محمود وجيد، وأن شعوب العالم تريد مستويات معيشة أعلى، وأن كلما فعلت دولة من الدول ذلك، إرتقت إلى الأعلى، ولكن عليك أن تتذكر أيضاً أن على أي دولة في المقابل أن تعمل وتسعى لنشر السلام والأمن من حولها، وسلطنة عُمان في زماني الجميل جعلت من ترابها واحة أمن وأمان ليس لأبنائها فقط، بل لكل المقيمين فيها والزائرين لها، جاعلة من المواطن العُماني شريكاً وهدفاً، فقد جعلته ركيزة وأساساً يعتمد عليه في الدفاع عن الوطن وحماية منجزات النهضة الحديثة، إنطلاقاً من فخره وإعتزازة بالمواطنة، ومن شعوره

بالولاء والإنتماء، واستعداده الكامل للتضحية للوطن وصيانة مكاسبه وتهيئة المناخ للتقدم والإزدهار، إذاً لو أن العولمة لا يمكن إيقافها، وإلى حد كبير، فقد يبدو العُمانيون متعولمون في الظاهر غير أنهم في الواقع أشد الشعوب العربية تمسكاً بتراثهم وأصالتهم وهويتهم، صحيح أنه في عُمان الكثير من الحياة الغربية لكن العُمانيون يعيشونها حسب طريقتهم، فقد إستمسكوا بنمط حياتهم وعيشهم، وقد وعى العمانيين في ذاكرتهم صور تاريخ عُمان القديم وصاروا قادرين على التمسك به وتكييفه مع المناسب من حياة العولمة، وقد زاد العُماني من تمسكه بتراثه وإزدادت ثقافته بمقدار ما في مخيلته من صور المعرفة عن التاريخ التليد والحاضر المشرق، فالعمانيون يعشقون وطنهم ويحرصون على نظافة مدنه وقراه، لهذا فإن من النادر أن يلقي صغيرهم قبل كبيرهم بورقة في الطريق، ويتباهون بالزمان الجميل الذي يعيشونه، وعشق الوطن هذا مغروس

لديهم منذ الأزل يتوارثونه عبر الدم الذي يسري في عروقهم جيلاً بعد جيل.

خاتمة الكلام...

بين دفتي هذا الكتاب جملة من "أحاديث الذكريات في مسيرة النهضة العمانية الحديثة" تتناول ما اختزلته ذاكرتي من مواقف وأحداث ومشاهد وشخوص خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٠م إلى ٢٠١٠م، تلك الذكريات التي ترسخت في ذهني كطفل، أو تلك المواقف والمشاهد التي استخلصتها خلال مسيرتي على مقاعد الدراسة، أو تلك التي خبرتها في قلب ممارسة نشاطي المهني في الحقل الدبلوماسي، وقد قصدت تمكين القارئ من التعمق والتأمل في اللحظة الراهنة لزمان عُمان الجميل، وذلك من خلال واقع المشهد العُماني بالنظر والمعايشة والاختبار.

وإذا كنت قد تعثرت كثيراً في وصف زماني الجميل فالعذر أن ذاكرتي لم يتسن لها حصر كل ما جرى

ويجري، وإذا كنت قد أخطأت كثيراً فما ذاك إلى لقلة الخبرة، وأنظر الآن إلى ما ورائي من أعوام العمر فأرني لم أجمع إلا القليل القليل من ما قصدت تبيانه، ولكن يبدو لي بقدر ما هو قليل فهو من بين ما أعتبره من مكملات البعض للكل، إن مخزونات ذاكرتي تتجادل وتتصارع وتتراكب، فيما قرأت وعايشت ولمست وشاهدت في زماني الجميل، هنا يختلط الخاص والعام والمهم والأهم، وتمتزج الحياة بالسعادة وبالرخاء وبالفرح، فلا فرق في زماني بين العيش في المدينة والبادية والريف والحضر، وهذه نتيجة حتمية لما حمله للفكر النير والعقيدة السليمة والمبادئ الثابتة والنهج المستقيم لجلالة السلطان قابوس، والآن هاأنذا تجرأت بالطواف بخاطري في ذكريات تمر في مخيلتي صور مسيرة أربعين عام من النهضة العُمانية، أتذكر الذي رافقوني وأولئك الذين رحلوا من أصدقائي وأحن إلى رفقتهم، أكاد أسمع أحاديثهم تتخللها ضحكات تتردد في ذاكرتي،

وأنظر إلى وجوههم الباسمة وأنصت إلى وجهات نظرهم المملوءة بالأمل والتفاؤل، وأرى أياديهم ترتفع إلى السماء وهم يبتهلون بالشكر والحمد على ما أعطاه لهم ربهم من خير وسعادة ورفاهية في زماني الجميل.

وإذا كنت لم أسجل كل شيء مما أختزلته ذاكرتي فما ذلك إلا نسياناً أو تقصيرا، فإن كان الأول فلي أعذار العمر والسنين وتشويش متطلبات الحياة التي يدركها كل من هم في سني، وإن كان الثاني فإنما هي طبيعة الإنسان والأشياء فالكمال لله سبحانه وتعالى، لأن كل شيء إذا ما تم يتخلله النقصان والتقصير، وإذا لم يكن بوسعي أن أكون متميزاً في حديثي وروايتي للأحداث والمواقف والحالات والشخصيات - لأن قلة ممن تمرسوا في كتابة السير يمكنهم ذلك فقط - فعلي أن أقف هنا وأدع قلمي يستريح تاركاً أن يستكمل الكثيرون غيري مشوار

الكلام، فهناك من تختزل ذاكرتهم عن مسيرة قائـــد وشعب الكثير الكثير فادعوا هــؤلاء أن يمســكوا بأقلامهم والبدء بالكتابة شعراً أو نثراً والتغني بأمجاد وأفضال زماني الجميل.

الفهرس

الفهرس




مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
سلطنة عمان - السيب